كتاب اليوم

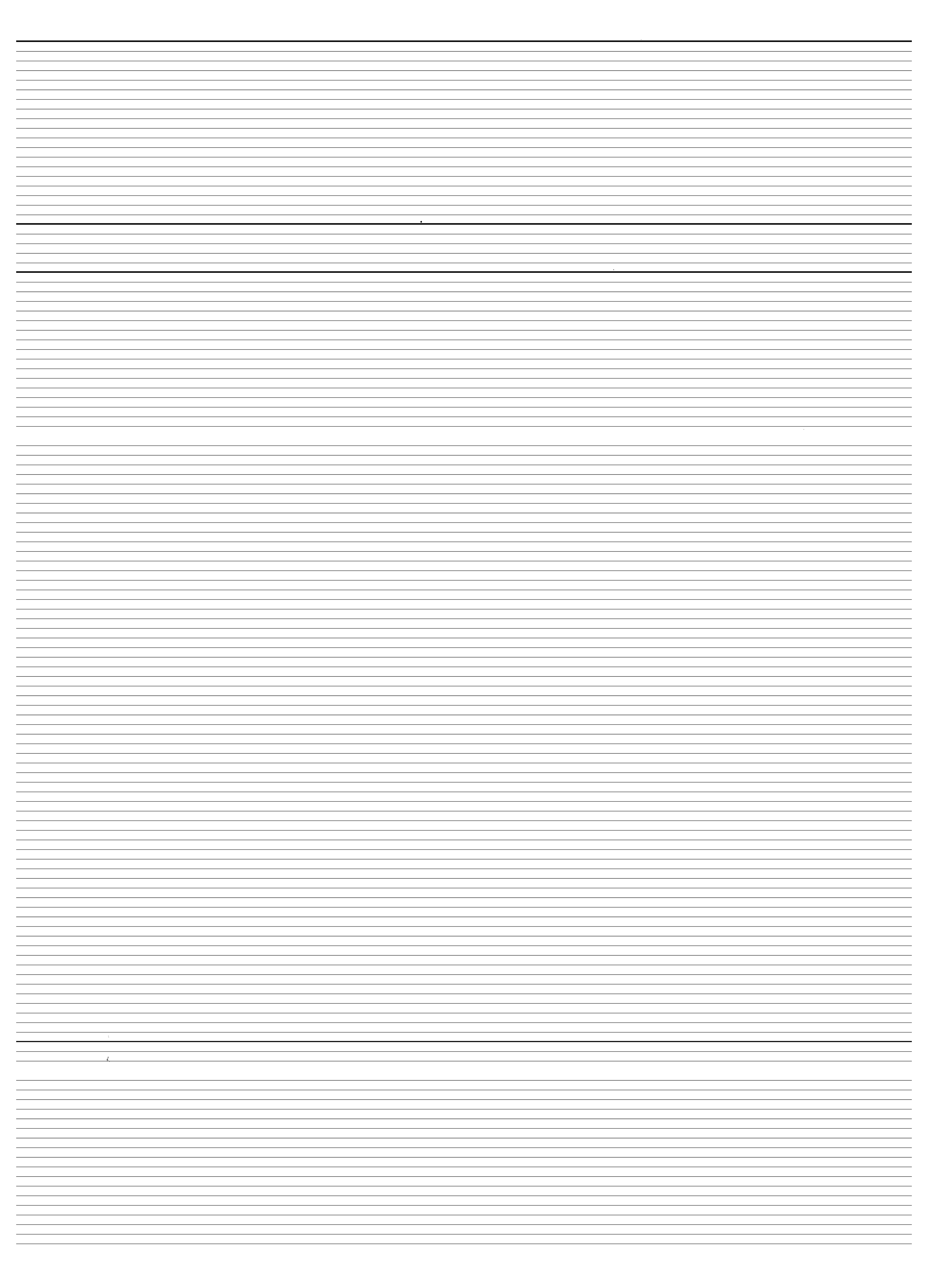
فؤاد قنديل

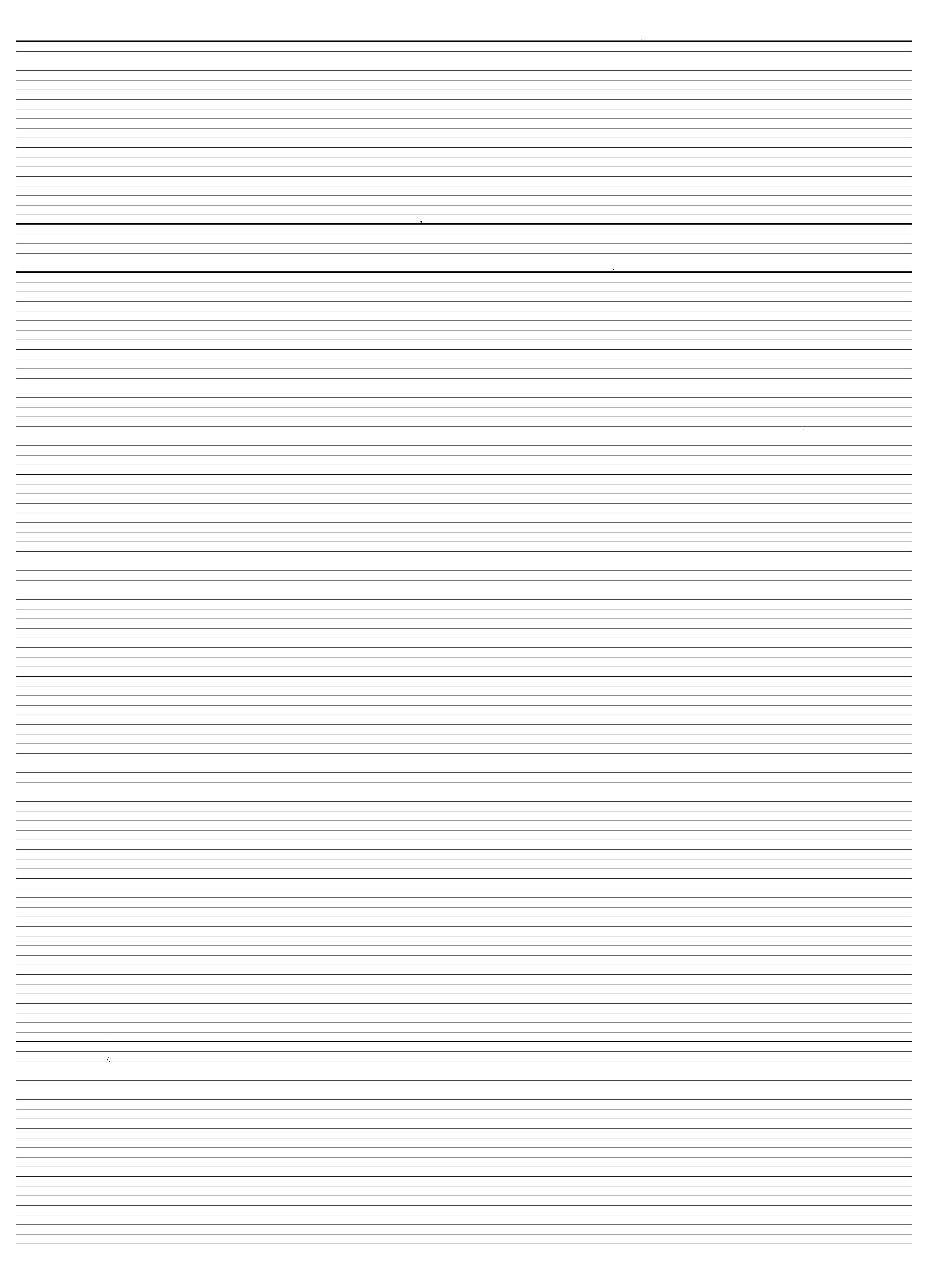
العدد ٢٦٠ • أول سبتمبر ١٩٨٦

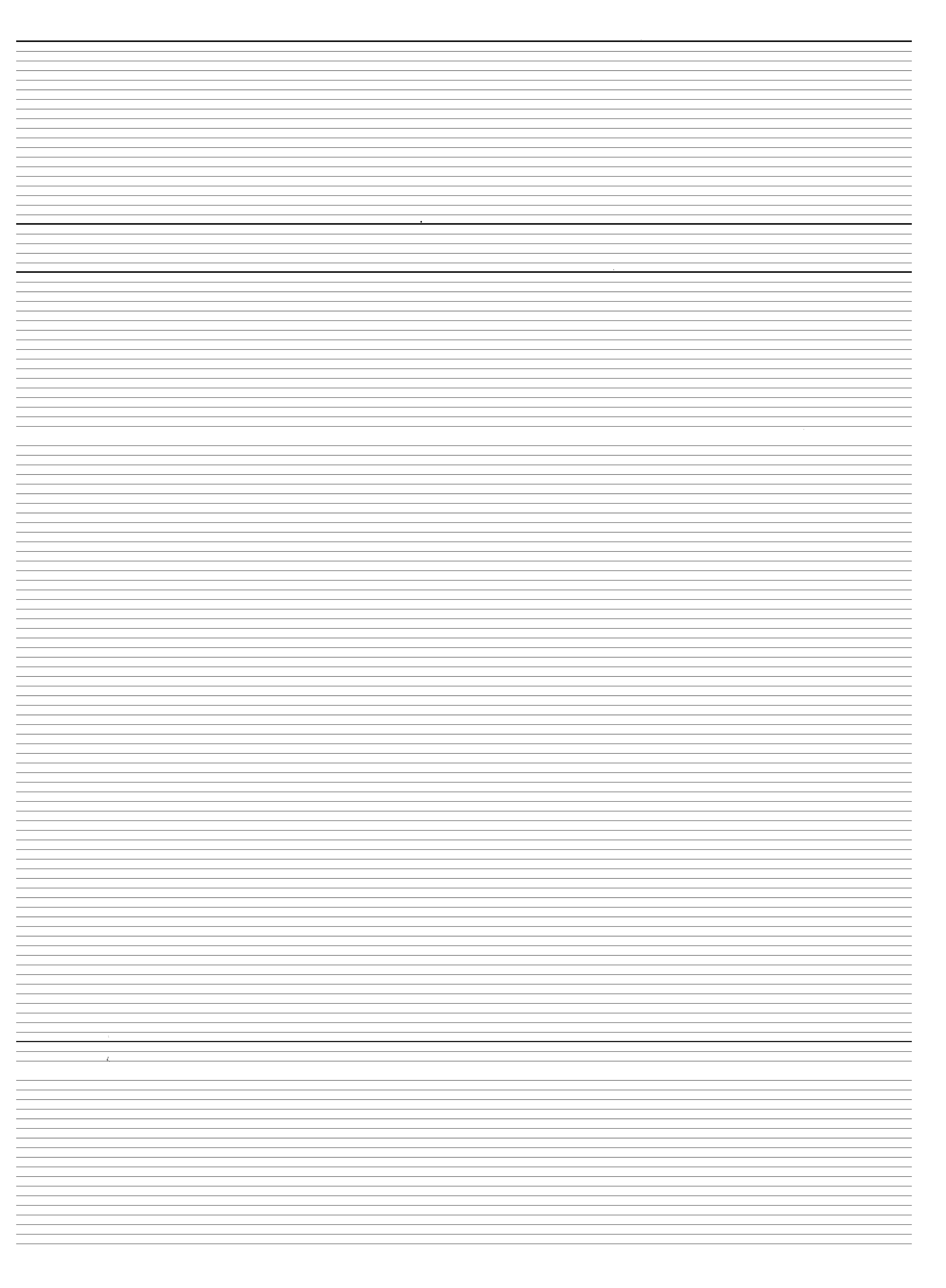


عشق الأخرس

مع تحياتي
للروائي الكبير الأستاذ
فؤاد قنديل







عشق الأخرس

(١)

فى ردائى الأبيض كنت على السرير ممدد الساقين . جاءت أمى وحملتنى . اجلستنى منفرج الساقين على أريكة فى صحن الدار .

الحارة ممتدة أمامى . أرقبها فى شوق ، أتشمم الأصوات التى تتقافز فى الفضاء وتتعالى دون أن أبرح مكانى ، فجرح طهارتى مازال يؤلمنى أشد الألم .

ذهبت سدى كل محاولات أمى لتسليتى ، فلم اكف عن التوجع واستذكار اللحظات القصوى لهذا الألم . لم تمنعنى من صب كل اللعنات على عم حافظ حلاق الصحة .

ذو القلب الحديدى حافظ . صاحب الرائحة المتميزة التى تسبقه بحارتين حافظ . ذو الكلمات السريعة الناصحة حافظ . حامل الحقيبة حافظ . الرجل الذى نهش حمامتى أول أمس حافظ .

كلما صرخت وبعزم ما بى صرخت ، يبتسم ويقهقه . ويده ليست يده ، إنها فى حالها تقوم بمهمتها ، تذبح وتخوض . أخالها تشق بطنى ويقهقه . لم يحس بألمى مطلقا ، وامى التى كانت ولا شك تحس بألمى تقضم اسنانها بشدة وهى تمسك ساقى بمنتهى العنف ، لم اتوقع ان بإمكان إمراة مهما اوتيت من عافية ، ان تقبض مثل هذه القبضة القاتلة . التى لم تتح لى اى فرصة حتى للاهتزاز . وهذه نصائح عم حافظ الله يا

أما ابى فقد ضج يومها بهذه الزيطة وهذا الصراخ . ولم يجد ما يفعله إلا ان يخرج

حمامتى . . أه يا حمامتى . يلعنك الله يا عم حافظ فى كل كتاب . اصوات الأولاد تتناهى إلى . تلعب وتجرى وأنا هنا قعيد . كيف يطيق من كان فى الخامسة مثلى ان يدقوه فى موضعه ولو لدقيقة . . لو كنت فى عافيتى لكنت الآن احتضن عود الحطب بين فخذى ليكون جوادا ، اقفز عليه والكزه فيحملنى حتى ، المتر ، ويعود .

لو كنت سليما لجاءت فردوس إبنة عمى لنلعب معا ونجرى إلى التوتة ، فاتسلقها كالقرد ، واظل التهم التوت وحدى وهى تنتظر ، تبتلع ريقها وتهتف بى لالقى إليها . لكنى اثير غضبها إلى ان تلجا إلى الطوب ترمينى به حتى تفلح فى النهاية وتصيدنى وانا اضحك واختبىء بين الأغصان البعيدة ، كثيفة الورق وفيرة الثمر .

أه اليوم هو الثالث

— أمى . . امتى ح اخرج ؟

— بعد اسبوع

— كتير

— الصبر ياضنايا .

اسبوع لا يحتاج إلى صبر ، بل يحتاج ان انام او اموت ثم اصحو بعد الأسبوع لالعب واجرى .

— بتالم يا أم . بتالم .

— ما تبقاش خرع امال . إجمد عايزاك راجل

— يعنى الراجل لو قص له حافظ حمامته مش ح يتالم

— هو مقصهاش . قال بس الحتة الزايدة .

— نار يا امى نار

لا تبارح خيالى صورة حافظ ، ولا احسب احدا يرتبط بالألم غيره وبالتهديد ايضا والارهاب .

فى كفرنا يبعث الامهات بسيرته الرعب فى قلوب اولادهن . والأولاد يعرفون انه يحمل معه الموس الذى لهب . فإذا لم تسمع كلام امك . هددتك وسعت إلى الباب لتنادى حافظ ، وكانه خادم الخاتم ، سوف يسمعها وياتى على الفور شاهرا موسه .

ما ان تنادى الأم على حافظ حتى ينكمش المتغطرس ويطيع العاصى ، ويدنو النافر ويستجيب فورا إلى ما يدعى إليه .

ركب لى حافظاً بين فخذى قطعة من الجمر ، تصرخ فى راسى وظهرى وساقى . . لهيب واى لهيب

تنبهت اخيرا إلى ان ذبابة او نملة تلتصق بقفاى . دفعتها فلم تبتعد . حاولت مرة اخرى فلم تبرح مكانها .

مسكتها بيدى فإذا هى خيط من الدوبارة معلق كالعقد ـ فى رقبتى ومن الخيط تتدلى على صدرى قطعة من الشاش مطوية على شيء ، حاولت ان افضها فلم افلح .

سألت امى عنها فقالت .

— حمامتك .

— ومتعلقة كده ليه ؟

— موقتا لحد ما ابوك ياخدها البندر .

— ليه هوه ح يبيعها ؟

— ح يرميها فى الصاغة قدام محلات الذهب

— واشمعنى قدام محلات الذهب ؟

— علشان ربنا يكتر خيرك ويزود رزقك

— وامتى ح يروح بيها

— بعد اربعة ايام .

— ممكن اروح وياه

— أه طبعا . . ساعتها تكون خفيت وبقيت عال

★ ★ ★

دخلت جارتنا ام خفاجة وسلمت امى كيسين وديكا . قالت : الف سلامة ياعريس . . خدى يا ام قاسم : حلاوة طهور قاسم .

— ربنا يبارك فيك يا فاطمة ويعوض عليك

لم تبق فاطمة الا دقائق ثم استأذنت فى الانصراف لقرب قدوم زوجها من غيطه .

والناس فى الكفر ينادون فاطمة بام خفاجة . وخفاجة ليس إبنها ولكنه ابوها ، وفى بلدنا لابد من نداء المرأة باسم ولدها يا ام فلان .

فإن لم يكن لها ولد نوديت منسوبة لابيها ، حتى ولو كانت غير متزوجة . وكأن نطق إسم المرأة عورة يجب سترها .

تمنيت ان اخرج كعادتى قبل الغروب للسباحة فى « المتر » الذى يدور حول قريتنا كحدوة الحصان .

كنا نتسابق إلى هذا الطمي جريا لنقفز فيه مباشرة بعد ان نكون قد تخففنا
من ملابسنا اثناء عدونا
لن استطيع ان اقطع خطوة من هنا . كل ما استطيعه ان اقبع في الدار
منفرج الساقين انتظر حافظ ليزيد الي بتغيير الشاش للجرح .

— إحم . إحم يا سكر

يا سبحان الله دخل حافظ الدار وهو يفتح الحقيبة .
وعاد الالم يشتعل في . حتى كادت روحي ان تفارق جسدي . لكن حافظ قال .

— الولد مفتاق ادبحي له ديك . باين عليه ما بياكلش .

عادت روحي إلي وقالت امي

— إزاي بقى بيقعد يادوبا .

لولا اني قلت لها هو فين الاكل ده .
اكد عم حافظ - الله يسطره - على حكاية الديك مرة اخرى وهو خارج ،
والحمد لله فقد كانت فاطمة قد دخلت به منذ قليل .
قامت امي إليه فذبحته ، وهي لا تالو جهدا في سبيل إسعادي فهي تحبني
جدا وتود لو تخطف لي نجمة من السماء وتضعها في كفي . دخل ابي وسرعان
ما خرج كعادته إلى ، [illegible] ، ليسهر مع العسيل ورجاله
قالت له امي على فين يا عطية ؟

— وبتسال ليه
— مش لازم اعرف
— ما انت عارفة
— انا مش عارفة حاجة
— احسن
— ما تقعد يا راجل تتعشى مع ابنك
— اتعشوا انتو .. انا مش فاضي
— لنا احنا مش فاضيين .. وغيرنا
— خليكي في نفسك وبطل كتر كلام .

ثم اختفى فجأة وصفع الباب في وجوهنا حتى نلوذ بالسكات .
قلقة امي على ابي لصلابته هؤلاء الرجال ذوى السيرة البطالة لكنها
تصبر ، وغدا يصبح العسم رجلا بمعنى الكلمة . لا مجرد كتلة من اللحم
وشوارب

تركتنى أمى لتطمئن على مسح الديك ، ثم عادت تحمل الموقد الصغير وفوقه البخور ، تسبقه الروائح العطرة . دارت به فوق راسى سبع مرات . لابد من سبع مرات حتى تطرد العين ويعجل بالشفاء .

لم تكن أمى تفهم سرا لعصبية أبى ، وهى إن كانت قد اعتقدت فى وقت ما أن ضيق ذات يده هو السبب أو سهره مع رجال العسيلى هو السبب فإن ذلك لم يدم فى رأسها طويلا . إذ باتت تشك فى ذلك وتعتقد أن هناك أسبابا أخرى .

أنا لا أعلم إلا أنه كان قليل المداعبة ، عاصف الكلمات سريع الغضب ، لم ينادنى باسمى أبدا رغم أنى وحيده ، ولا يذكرنى باسمى حتى وأنا غائب . وإنما يقول :

— فين الولد ؟

أو يقول لضيفه مثلا .

— بعت لك الولد يدور عليك . أنت كنت غطسان فين .

وكانت أمى تعجب لمعاملته لى بهذه القسوة وقد سألته مرة قبل طهورى بأسبوع تقريبا .

— أنت بتعامل الواد كده ليه ؟

— سيبينى أربيه علشان يطلع راجل . الحياة يلزمها راجل . الحريم النهاردة بقت رجالة .

لكن لا أمى ولا أنا ولا أى شخص آخر يستطيع أن ينكر كرم أبى على بيته وعلى الغريب . كان ينفق كل مامعه وكأنه سيموت غدا .

وكانت أمى تبذل كافة الجهود لتدبير شئون البيت لأن وقت أبى كان موزعا بين مصنع الطوب نهارا ، وخص ولعة ، مساء .

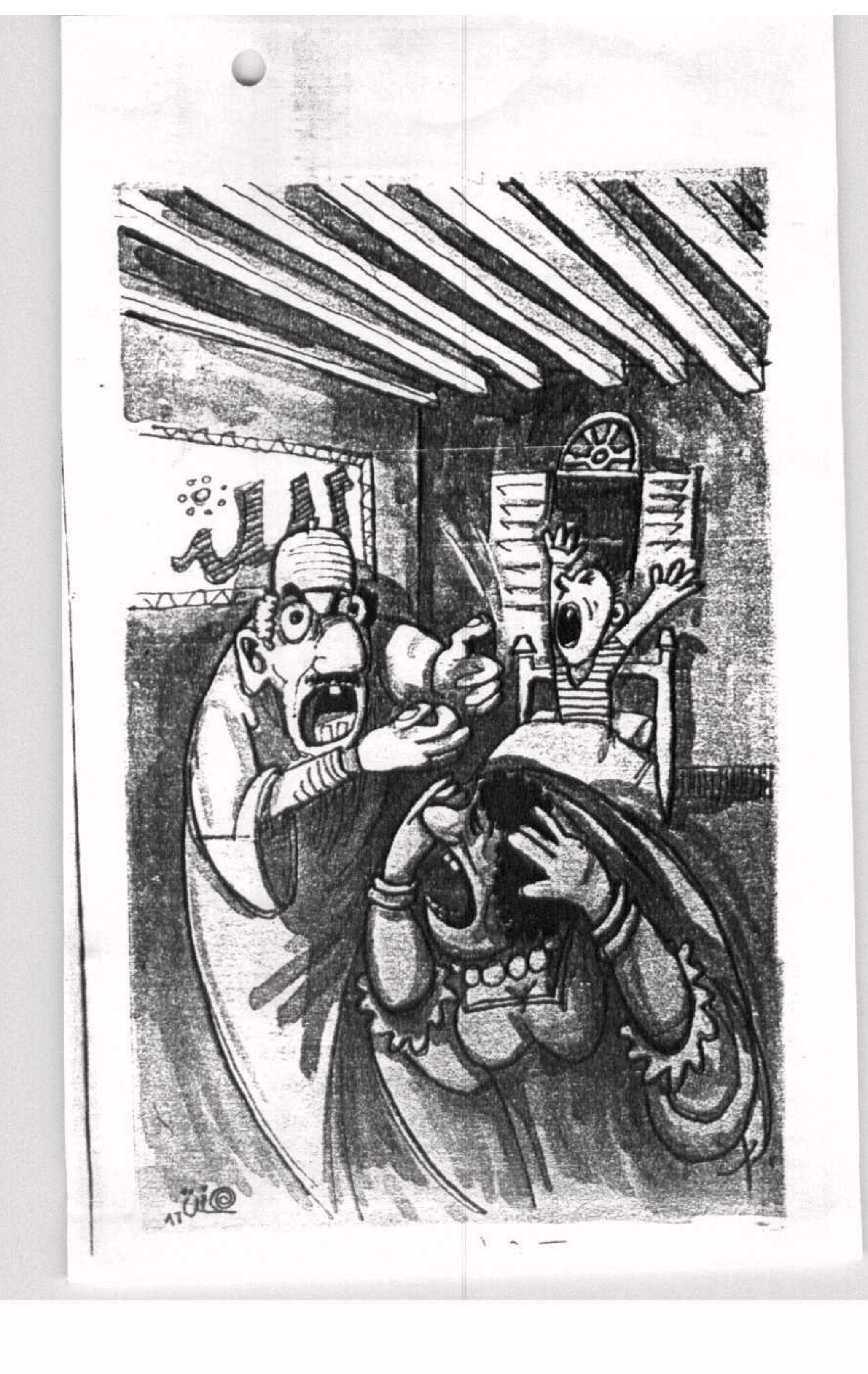
منذ ثلاث سنوات كان يستأجر فدانا وربعا ، يزرعه بنفسه وكنا نعيش فى ظله حياة طيبة ، لكن أصحاب الأرض أخرجوه منها وأقاموا عليها مع باقى أرضهم مصنعا للطوب وبعد أن كانت الأرض تحت يده يفلحها ويأكل من خيرها ، أصبح يعمل مع عشرات العمال فى المصنع ، يحمل الطوب الأخضر على ظهره ويصعد الدرج ليوصله إلى قلب أمينة الطوب مقابل قروش يقبضها آخر الأسبوع ، يسدد بمعظمها مسحوباته من خص ولعة .

فجأة دخل أبى كالصاعقة . فساد الظلام ودوى صراخه فى الدار .

— فين أمك .

ولم أحر جوابا ، ولم ينتظر حتى أرد عليه .

— أنت فين يا سافلة .



التقى بها خارجة من دورة المياه ، فصفعها بشدة : كنت فين امبارح ؟ لم تستطع ان تنطق . فغرت فاها وفتحت عينيها ، فصفعها صفعة اخرى اطاحت بها . زحفت إلى مخزن التبن واغلقت عليها بابه وصرخت انا بشدة وبكيت ولم استطع النهوض .

دق الباب بعنف كانه سجين يود الخروج ، كانه غريق يبحث عن الحياة بالحاح ولهفة . دق الباب بعصبية وهياج .

— افتحى يا مجرمة . . مش سايبك إلا جثة هامدة . . انا . . انا عطية البنهاوى سيد البلد واجدع راجل . . افتحى .

واخذ يهز الباب والجدار والدنيا ترتج تحت هجمة غضبه . انحنى على كانون النار المشتعلة تحت الديك فسحب قطعة من الخشب والقى بها فى المخزن من فتحة صغيرة اعلى الباب .

إستجاب التبن فورا للنار وبدا لنا ان المخزن تحول فى ثوان إلى غرفة من نار .

فتحت امى الباب وهى تولول وقد اشتبكت بها النار وتسلقت ثيابها إلى شعرها وظهرها .

صرخت وبكيت وجريت إلى الحارة اواصل الصراخ بعنف مجنون وقد تلاشى املى .

جاء الناس مسرعين . . دخلوا الدار وكانت امى ملقاة على الارض وابى يحاول ان يطفىء النار ، والنار كانها كانت تنتظر اول إشارة حتى تمضى مسرعة فى التهام كل شىء .

ادرك الناس على عجل ان دارنا لا امل فى إنقاذها والافضل ان يسرعوا بمنع النار من الانتقال إلى دورهم ، فمن الممكن إذا ساء الحظ ان تسبق النار تفكير البشر .

ظللت على حالى اواصل الصراخ دون ان يعبا بى احد وامى ملقاة على الارض . . امى حبيبتى اسود وجهها الجميل وتعرى جسدها وانهار ، وجلس إلى جوارها . ابى يبكى .

أسرع الكل يطفىء النار وجاءت الاسعاف وحملت امى ومضت ، وظللت وحدى أصرخ وأبكى حتى وقعت مغشيا على ، لافيق بعد قليل فإذا انا فى بيت عمى الشيخ بيومى البنهاوى شيخ البلد ، وإذا بالنبا يبلغنى صاعقا بلا رحمة : كان الله فى عونك امك ماتت . فلم انطق . . لم انطق ببنت

(٢)

كانت فردوس أجمل وأرق مخلوق عرفته بعد انتقالى إلى بيت عمى . أمها حفيظة شخصية جامدة . باردة ، لم أعرف بالضبط إن كانت تحبنى أم لا ، ترحب بوجودى أولا ترحب ، لأن كراهيتها لى أوحبها لا يبلغانى مباشرة ، وإنما من خلال تصرفات الآخرين .

اما عمى شيخ البلد فهو قاس على الكل . طبعه حاد مع الجميع ، فلا عجب إذا كان قاسيا على . بل لا داعى ان يكون بالنسبة لى على غير عادته . وهو كذلك ايضا مع اولاده . . وان كان حبه لأولاده يتجلى فقط فى منحهم المصروف وشراء الثياب ، لكنه فى غير ذلك لا يتخلى عن غلظته ، ولا يعفيهم من الصفعات والبصق إذا أخطاوا .

أكبر اولاده هندى فى الواحدة والعشرين ، شغلته الأرض عن العلم وكذلك جبريل اخوه الذى يليه .

تاتى بعدهما انصاف ، سعى عمى لزواجها بمنجد اكبر ابناء العمدة ، حتى تقوى العلاقة بينهما ، فلا تصدر عن العمدة اى حركة خيانة من المعروفة عنه . وحتى تتوثق الصلة بينهما شيئا فشيئا شيخ البلد وتظل الاتفاقات معقودة . والتقسيمات سارية المفعول والسلطة قوية ويحكمان البلد كما يريدان . . لكن الزيجة لم تتم .

وحاول عمى مع ابنة العمدة السنيورة العايقة زينات لتكون من نصيب هندى ، لكن مسعاه فشل ايضا لأن هندى مجرد فلاح .



وهناك صلاح وهو فى الرابعة عشرة وعزيز فى العاشرة . . ويذهبان إلى المدرسة منذ سنوات . . صلاح إلى مدرسة البندر وعزيز فى مدرسة الكفر . اما فردوس فهى فى مثل عمرى وربما ازيد عليها شهورا .

★ ★ ★

عاملنى عمى فى الأيام الأولى بقدر من اللين لا انكره ولا انساه ، ولكن الحال لم يستمر ، فاصبح يناديني . انت ياوله .

وإذا سال عنى : فين الأخرس

وعندما نسيت أن أضع الذرة للخروف كما امرنى برطم بالكلام الذى يدل على غضبه ، والتقطت منه قوله لعمتى حفيظة

— عيلة ما لهاش جاكم خلفت عبيط .

واستطرد : أبوه راخر لما كنت أحاول أفهمه أو أقول له على حاجة غلط ، يفط الكلام من بقه على طول ويقول :

— هوه حد بيجرى عليه . . ما دام باكل من دراعى . مفيش حد له كلمة عندى . . جتك خيبه . . أهو دراعك الغشيم دخلك السجن .

ودخل عليه جبريل وقال : شكرى إبن الشيخ فرج عايزك .

— هاته .

— سلام عليكم يابا الشيخ بيومى .

— أهلا يا شكرى . . اتفضل . . فيه حاجة .

— أبدا إحنا كنا بنزور عطية البنهاوى فى السجن وكان زعلان قوى وعايز يشوف ابنه .

— لا فيه الخير . . اخيرا افتكر ان له ابن . . حاضر يا سيدى الزيارة الجاية خده معاك .

— هوه حضرتك مش رايح له . . ده سال عليك .

— قول للمجنون ده ما يسالش على . . وياريت ما يعرفش حد انه اخويا . . كفاية حط راسى فى الطين ، . مدير الأمن بيقول للعمدة . . هو اخو شيخ بلدكم دخل السجن آه . . خليه ينكتم وما يجيبش سيرته لغاية أما داهية تشيله ونرتاح من جنانه .

— طيب حاضر . . الجمعة الجاية ح أجى أخد قاسم .

وخرج شكرى وعاد عمى يهزا بابى .

— خد راحتك قوى فى السجن . اهو يناسب اللى زيك . . اكل وراحة .
كنت عايز تشتغل يوم وتبطل عشرة وتبقى اجرتك ماشية . . لا ياحبيبى .
حط راسك بقى فى وسط رجليك ومدد زى الكلاب بلا شغلة ولا مشغلة
وقالت حفيظة : عامل فالج وراح ولع فى البيت .
وقال عمى : قال ايه سمع عنها كلام . كلام إيه يا صايع . ملموم على حبة شواضلية زيه ، ده حتى هى احسن منك ، على الاقل بتشتغل طول النهار ، تلقط لقمة من هنا ولقمة من هناك . . وانت قاعد بس للامارة وقال إيه بتاع مزاج .
حفيظة : ومراته رخره مش عايزة تيجى تشتغل فى الدار
عمى : هيه كانت ح تشتغل بلاش ، ما كانت ح تطفح هى وجوزها والبلوة اللى جابوها .
فقر وعنطزة ، علشان كده نهايتهم جت غبرا . دنا رحت بنفسى لغاية عندها أطلبها تيجى تقعد فى الدار ، ح يعوزوا حبة مية تملا لهم من « المتر » ، تاخد بالها من البهايم . . قالت : لا .. انا ليه دار واللى يخرج من داره يتقل مقداره .
حفيظة : الحال المايل ما يعجبش .
دخلت فردوس وجلست ملتصقة بابيها .
عمى : راخر اللى ح اشوفه من ولادى يون ، بالكرباج وح اشويه علشان ما يطلعش عرة زى بسلامته .
والاخرس دا هوه ، لازم يكون نار ولعة . . غير كده ما لوش هنا مكان .
جاءت انصاف ومالت على امها وقالت :
— الغدا جاهز .
قالت عمتى حفيظة ـ يجيبولك لقمة يا بيومى .
عمى ـ هاتوا .
وبعد الغداء .
مالت فردوس على ابيها وقالت له وقد بدا فى حالة هدوء نسبى .
— يابا والنبى ما تقولش لقاسم . . يا اخرس .
دفعها عنه قائلا : انكتمى انت .
وقالت امها فى برود لا تعرف ملته ولا هويته
— مالكيش دعوة انت يافردوس . . عمه هو حر فيه .

فردوس : انا قصدى علشان ما يضايقش

ويزعق عمى فيها قائلا : يتضايق من إيه يابت . هو . اخرس ولا مش اخرس . . ردى .

قالت فى همس وتراجع كانها لا تود ان تترك الالفاظ تسقط من فمها : اخرس .

قال عمى فيما يشبه النصر وقد اثبت انه عادل وطيب .

طيب خلاص . . زعلانة ليه .

. . . . . .

ادركت مع الأيام ان الم الطهارة الذى كان يمثل منذ اسابيع قليلة قمة المى وفزعى ، كان هينا جدا وتافها جدا . . إنه مجرد الم اطفال . . اوجاع صبيانية .

حاولت ان انسى كل شىء وافكر فى ابى وهو فى سجنه . . حاولت ان ارتب افكارى عنه وعن حاله .

اولا ما هو السجن ؟ . وهل ابى فيه وحيد ، ام معه غيره ، ومتى يخرج ، وبعد ان يخرج كيف نعيش واين ؟ . .

لقد انتهت دارنا ، وسواها عمى بالأرض وخلصها من الإنقاض واصبحت دوارا أخر له .

كلما مررت امامها وقفت . ولا ادرى لماذا اقف حتى لو كنت مع عمى . . اتوقف . . اظل فى الفراغ والخواء . . اسال يعيونى ولا مجيب . . ثم اشعر بالبرد القارس يدق جسدى . واظل واقفا مشدودا دون ان يرحب بى أحد سوى الصمت الخائف .

وفجاة تمرق مرعوبة العصافير الصغيرة فيهتز الصمت اليتيم ، ويؤنسه حفيف اجنحتها وزقزقتها ونداءاتها .

وفى كل مرة اقف كأنى قبلا لم امر ، اما غيرى من اهل الكفر فلا يتوقف أحد . بل انهم ليسرعون عندها ، يدفعون باقدامهم متعجلين وفى اكثر الأحيان يتجنبون العبور من امامها ، فهى فى نظرهم مسكونة وفى الليل ماوى العفاريت .

انا نفسى صدقت ذلك ولم اجسر على المرور من امامها وحيدا بالليل

فاين سنعيش بعد خروج ابى . . إذا لقيته فسالقى امامه بكل ما فى جعبتى من أسئلة .

اخذنى شكرى فى يوم الزيارة . . وقفت امامه تحول بيننا القضبان يحلق فى طويلا . واخذ يتاملنى والدموع فى عينيه . كانه يرانى لأول مرة . وكانه اكتشف فجاة ان له إبنا ويشتاق إلى لقائه .

سمعت من قال : إزيك يا قاسم . . وحشتنى قوى .

ليس هذا صوته . إنه رقيق وديع . . تسرب إلى روحى مباشرة فدق قلبى . . اهذا ابى . .

قال : ازيك يا حبيبى . . مش كان واجب تسال على ابوك يا قاسم . حاولت ان ارد . فلم تبرح الكلمات صدرى . . حاولت انتزاعها فبقيت فيه . وفتحت فمى . فإذا منه يصدر صوت كالانين .

— إواو . . إواء .

فلطم ابى صفحة وجهه بكفيه وصرخ : إبنى

فبكيت . . فرت الدموع فجاة واسرعت بالانهمار على خدى وذقنى وملابسى .

اهذا ابى . . لماذا لم يكن كذلك حين كنا معا . . انه الآن بائس حزين . . لكنه جبل من حنان ورقة . . اسند راسه على الجدران ثم رفعه . واخرج من صدره أهة ممدودة حادة كالسيف . مضى عليها وقت طويل وهى مخزونة باعماقه . وامتد الوقت بها وهى تستل من لحمه .

ثم قال وهو يدس فى كل نظراته . . ظلمتك يابنى . . وظلمت امك وظلمت نفسى .

وتسلمه النشيج مرة اخرى وتسلمنى .

وفجاة زعق .

— الكلاب . . ظلمونا . هدونا . . شتتوا شملنا . . لسانهم اللى يلزمه القطع . . لا . . عمرهم كله . . الكلاب .

وتحول الجميع إلينا ينظرون . وتركوا الزوار مسجونيهم واقتربوا ليسمعوا ابى .

وجاء العسكرى وقال له : لو ماكنتش ح تسكت ح ننهى الزيارة وسكت وتحول إلى يحدق فى . وشكرى إلى جانبى ينهار معنا ويتماسك . يشاركنا البكاء ويشاركنا النظرات .

ثم قال : بكرة تخرج باعطية وتعوض ابنك عن وحدته وعذابه . . ربنا كريم . . إيه يعنى سبع سنين . . فات كذا شهر وجايز يعفوك من ستة لحسن

السير وجايز تيجي مناسبة يخرجوك بدري . . ربنا كريم ورحيم .

— خد بالك منه يا استاذ شكري . . طل عليه كل يومين تلاتة . . اصل انا خايف عليه من اخويا .

— بالعكس . . شيخ البلد بيعاملوا زي ولاده بالظبط . . مش كده ياقاسم .

فاومات براسي موافقا .

كان ابي طيبا جدا وحنونا ورقيقا ، ليته كان معي في دارنا ، ليته يخرج . ليته . . ليته . .

وعدنا إلى الكفر وكل ما افكر فيه . . عمي . . لماذا يفعل عمي ما يفعل ؟ ولماذا يكره ابي وامي ؟

عدت إلى عمي وعمتي حفيظة والعذاب الذي لا يهون إلا بوجود فردوس .

دخلت فردوس المدرسة . . كنت اصحبها في الصباح ، وفي الظهيرة اترك الغيط لارافقها في رحلة العودة . . كانت هذه اوامر عمي ، لكنها كانت قمة امالي ومنتهى رغبتي .

احمل لها الحقيبة فاشعر انني اسعد إنسان حمل حقيبة في الدنيا ، واتامل فردوس طويلا بفرح كانني انا الذي خلقتها بهذا الشكل وهذا الجمال وهذه الرقة والحيوية . .

ارنو للمريلة والجورب والحذاء ثم اصعد لاطيل النظر إلى ضفائر الشعر التي تحرس الظهر .

اظهرت المدرسة جمال فردوس ودلت الناس عليه . لكنها كم تدلني انا لانني اعرف فردوس منذ اعوام بعيدة . . بعيدة في نفسي . عميقة في صدري .

احبها واهيم بها لاسباب عدة ، لا اعرف إلا واحدا منها هو انها تناديني : ياقاسم .

اسمي جميل في شفتيها وكلما اشتقت لسماعه ، سعيت إلى فردوس لتقول لي : قاسم . . انت فين ياقاسم . . تصور ياقاسم انك بتيجي بالظبط في اللحظة اللي اكون عايزاك فيها . . دي مش حاجة غريبة .

واشير لها بمعنى لا . . إنها ليست حاجة غريبة . . إنها مسالة طبيعية جدا ، واشير إلى صدري وصدرها ، بمعنى ان هناك اتصالا بينهما ، فتضحك فرحة لان هناك مثل هذا الاتصال ، وتصدقني وتؤمن على كلامي .

ظلت لسنوات طويلة تذكرني بهذا الاتصال في مناسبات مختلفة حتى انها

فى مرة عندما كبرنا قليلا ، بحثت عنى فى كل مكان فلم تجدنى ، ولما التقينا قالت :

إيه الحكاية . . الأجهزة بتاعتك عطلانة اليومين دول ؟ . . الاتصال شايفاه باظ .

فاشرت إليها باننى اكلت كثيرا وكبس الطعام على نفسى ، فافسد اجهزة الاحساس ، ففهمت وضحكت .

كانت فردوس تحكى لى كل شىء واجيبها برايى ، وتفهمه بسهولة وقبل ان اكمل إشاراتى وتعبيراتى .

تعاملنى كانى إنسان كامل ، لا ينقصنى شىء ، مع ان الناس جميعا يعاملوننى كانى حيوان او جدار .

كانت تقص على ما ستتلقاه اليوم بالمدرسة من الوان الدرس .

— عندنا النهاردة العاب ، وعربى وحساب .

قالت لى مرة : ياريت يا قاسم تتعلم زيى علشان تساعدنى فى الحساب وانا بقى اساعدك فى العربى والدين . انا اشطر واحدة فى الدين . حفظت الفاتحة وقل هو الله احد والعصر قبل الولاد .

وسالتها أن تسمعنى بعض ما حفظت ، فاسرعت تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً احد ﴾ صدق الله العظيم .

كانت تفتح فمها اكثر من اللازم ، ويدور لسانها فى نشاط غريب داخل حلقها .

اتذكر الآن كل ما كانت تقول ، ويتردد فى اذنى صوتها بعد عشرات الأعوام ، كما كان يتناهى إلى آنئذ ، ولكنى الآن اكتشف ما كانت عليه قراءتها من تاكل ، وحروفها من نقص ، وصوتها من التواء . ورغم كل هذا فقد كانت اجمل قراءة واحبها إلى نفسى .

وبعدها بايام قالت بعد خروجها من المدرسة :

— استاذ الحساب لهلب إيدى بالمسطرة لأن الواجب كله خطأ .

فذعرت ، واخذت اتخيل المسطرة وهى تسقط على يدها فتؤلمها . . هذه الفتاة الجميلة . . هذه الانسانة الوحيدة فى القرية تضرب على هذا النحو المؤلم .

واشير عليها بان تاخذ معها حجرا فى حقيبتها ، فإذا ضربها القته فى وجهه ، فتشج راسه ويسيل دمه حتى لا يعود لمثلها فتضحك وتضحك ثم تقول :

— لا . . مهما كان ده هو الاستاذ اللى بيعلمنا ، وانت بتقول كده لأنك برد المدرسة ، لكن انا برغم الضرب ده بحب المدرسة .

حتى الضرب حولته فى نظرى إلى شىء جميل ومحبب .

كانت فردوس معلمتى ومرشدتى رغم انها تصغرنى بشهور .

★ ★ ★

فى احد الأيام انتظرت فردوس كى ارافقها فى رحلة العودة ، فالفيتها خارجة مع مدرستها . وقفت إلى ان تقتربا منى . لاحظت ان المدرسة تحمل حقيبة وعددا كبيرا من الكراسات .

عندما بلغانى تابعت السير معهما ، لكنى رايت ان المدرسة لا تستطيع إحكام يدها على الكراسات ، فاشرت عليها بحملها ، فلم تفهم وشرحت لها فردوس ، فرضيت وحملت الكراسات ، وسرت مبتهجا لأنى احمل كراسات المدرسة وهى ولا شك اكثر امتلاء بالعلم من كراسات فردوس ، رغم غلاوة التراب الذى تنفضه اقدام فردوس .

سالت المدرسة فردوس : حد بيساعدك فى البيت .

— لا .

— واله كويس . انت أحسن من زميلاتك .

— انا بحب العربى والدين يا ابله .

— وايه اللى خلاك تحبيهم .

— إنت يا ابله .

— إزاى .

— طريقتك . . كلامك ، طيبة قلبك ، شجعونى انى احب العربى وافهم الدين بسرعة .

— والحساب

— ضعيفة

— ليه .

— مش عارفة .

— لا بد فيه سبب

— يمكن لأن الاستاذ حمدى . .

— راجل طيب .

— بس بيزعق لنا ، وقبل ما ننطق يضربنا . . طبعه حامى قوى .

— وإحنا مالنا ومال طبعه يافردوس ، إحنا نذاكر وبس
— حاولت يا ابله ، لكن الكتاب راخر بالاقيه يكشر فى وشى
— مرى على بعد المغرب وانا اساعدك شوية
— حاضر يا ابله .
بلغنا دار عمى .
مدت المدرسة يدها لتاخذ منى الكراسات . اومات براسى رافضا ، واشرت لها بمعنى انى ساصحبها ، فهمت وابتسمت ، تركنا فردوس تدخل وتابعنا سيرنا . انا والمدرسة ، ولم تنطق بحرف طوال الطريق
وعند باب دارهم توقفت . قالت : ادخل
رفضت . . قالت . لابد ان تدخل .
دخلت فقالت لأمها القابعة فى ركن من الردهة :
— ده قاسم يا أم . . ابن المرحومة .
قالت الأم بفرح مفاجىء واضح انه من القلب : حبيبى . . تعالى يا حبيبى
قالت المدرسة : خش يا قاسم . . سلم على ستك ترك
ودون ان اعرف هل هى ستى صحيح ام لا ، لان كفرنا كل الناس فيه اقرباء . حتى لو لم يكونوا اقرباء . . كل شاب يقول لكل عجوز : يابا فلان وإن لم يكن والده او عمه او خاله .
تقدمت منها . سلمت عليها . احتضنتنى بشده وربتت على ظهرى ومصت جلد وجهى فى قبلة من القلب .
— يا ضنايا .
ثم قالت لابنتها المدرسة . . هاتى له يافوزية ياكل .
رفضت .
تشبثت بى ستى ترك ، ودخلت فوزية إلى حجرتها لتخلع ملابسها قالت ستى ترك : انت مش عارفنى .
فنكست راسى واهدابى دلالة على انى لا اعرف
قالت لى بسعادة الذى ينبىء بخبر سار :
— انا خالة امك .
وما ان قالت امك ، حتى بكيت على الفور ، بكيت بمنتهى الألم . بكيت بعنف . هاويس وفتحوه . بكيت الحنان والحب . امى حبيبتى .
اكتشفت حين بكيت انى كنت قد نسيتها ، مرت شهور دون ان اذكرها .

لم يكن هناك ما يذكرنى بها ، غير عمى الذى يذكرنى بها كى اكرهها ، ويذكرنى بأبى كى امقته ، ولاتذكر دائما انه هو افضل الجميع .

لم اذكر امى حقا ، ولكنى ابدا لم انسها ، وها هو المكتوم قد تفجر ، علا نحيبى وتوالى انهمار الدمع الحار ، نابعا من القلب ، يشد فى إثره خيوط الذكريات ، ويهزنى فى عنف .

ايها الجبان . . هل كان لك فى هذا العالم الكريه غير امك . ياحبيبتى يا امى . . انت الدنيا كلها يا امى . وبعدك لا احد . حتى انا غير موجود . . حشرة يدفعها هذا وذاك عن وجهه . . مكروه ومهجور . ملقى على الأرض .

لا يغطينى احد من البرد ، وغطاء عمى لا يحمينى ، بل يعرينى ويكشفنى للسعات البرد ورخات المطر .

لا يطعمنى احد ، فطعام عمى اقل مما يعطيه لكلب ، ولقيماته لا تاتينى من قلبه ولا برضاه ، ولا بأى لون من الوان الحب ، إنه يلقيها إلى كانه يلقيها فى البحر .

لا أحد يهتم بى يا امى . اين انت . قسوة منك ان تذهبى وتتركى طفلك شريدا فى قرية مظلمة . كل من فيها لا يعرف إلا اطفاله هو . الذين انجبهم ورآهم بعينيه ، وهم ينزلقون من بطن امراته ، اما انا . فانا لقيط . . إبن الطريق . مثلى كمثل الكلاب الضالة وروث البهائم والذباب .

إننى يا امى لا انطق واظنك لا تعلمين هذا . . لا انطق . لا استطيع ان اقول :

— انا فلان ابن فلان او ان بلدى كفر سندنهور .

لا املك ان ارد على احد إلا بالصمت . . فالصمت ظلى الدائم ليل نهار . نهيرات الدمع فاضت وانا ذاهل عما حولى . كانى مت او نمت . . او . . لا ادرى فانا قلب يصرخ ، وعينان تذرفان الدمع .

غاض النبع وهدا الصدر ، فعاد الوعى . بالقسوة والحزن ، والحزن الحقيقى اول خيوطه الأم وما يخص الام . . اه يا امى . .

اين انت ؟ . . اخيرا سالنى شخص عنك ، او ردنى إليك تناهت إلى الأصوات .

— قاسم . . ما لك يا حبيبى . . كفاية يابنى . . الله اكبر . . الله اكبر . . بس ياخويا بس ياضنايا . . يابنى كفاية قطعت قلبى . . حرام عليك .

تبينت ان ستى ترك وابنتها ابلة فوزية تبكيان مثلى بغزارة حتى بعد ان توقفت .

أصرا على إطعامى . فأكلت بنهم . . لماذا ؟ . . لا أدرى . .

وأثناء الطعام كانت جدتى تركز تحدثنى . . ومع كل كلمة تربت على ظهرى كنت أحس فى كل حركة من حركاتها ، وكلمة من كلماتها بالحنان الريفى الخالص . نهضت للعودة .

قالت خالتى فوزية : تعالى لى المغرب مع فردوس .

أومأت بالموافقة وأنا أنصرف .

★ ★ ★

عدت مع فردوس وقت صلاة المغرب ، وجلست معها استمع إلى شرح المدرسة . خالتى فوزية . وفجأة سألتنى خالتى

— تحب تتعلم ياقاسم .

بحركة لا إرادية نظرت إلى فردوس ، وضحكت فردوس وضحكت . .

قالت فردوس : ياريت يا أبله .

ظلت نظرات خالتى تتفحصنى وتشجعنى على إبداء رأيى . فوافقت قالت على الفور : يبقى تيجى المدرسة مع فردوس من الصبح .

فكشرت وكشرت فردوس ثم قالت :

— أبويا مش ح يوافق .

تحولت إلى نظرات خالتى وكأنها تسألنى عن صحة ما قالته فردوس فأومأت برأسى مؤكدا أن أباها لن يوافق .

ساد صمت قاهر لا يستطيع أحد التخلص منه ، لأن عمى لن يوافق إذن فقد سدت السبل .

قالت خالتى : مش مهم ، برضه ممكن تتعلم . . تعالى مع فردوس كل ليلة ، وأنا أشرح لك وأفهمك .

فرحت فردوس وفرحت . . كانت فردوس تريد أن أتعلم . . من قلبها كانت تريد أن أتعلم لأنها تحبنى . . مؤكد تحبنى ، وتتمنى أن أعرف كل ما تعرفه ، أن تحدثنى عما تعرفه ، أما أبوها وأمها وأخوتها فلم يحملوا لى إلا كل كراهية واحتقار ، استثنى منهم عزيز الذى كان يعاملنى بأفضل من كل الغرباء .

ذهبت عدة ليال مع فردوس إلى خالتى . . وفهمت كثيرا مما كانت تقول . استوعبته فى يسر . . كان يدخل إلى عقلى وقلبى دون استئذان . لم أجد تلك الصعوبة التى يتحدث عنها الأولاد .

كان حديث خالتى جذابا . . عذبا فى أذنى ، محببا إلى قلبى ، أردده بينى

وبين نفسي ..حين اكون بالدار او في الغيط . اجد لكل ما تقول عربي حساب او دين مذاقا جميلا .

اصبحت لا اعد على اصابعي كما تفعل فردوس ، وإنما انظر بعيني إلى لا شيء واعد في راسي . اعد كل شيء . الاعمدة والخراف . الناس والبيوت . . الكلاب واعواد الذرة والأشجار .

استطعت خلال اسابيع ان احيط بالكثير مما كان مغلقا على .

وكان كل اعتمادي في دروس الحساب والعربي والدين على الكتابة .

كنت اتمنى ان انطق ، لا لاتعلم ، فقد تبين ان عدم نطقي لم يمنعني من التعلم ، ولكني كنت اهفو للنطق كي اساعد فردوس على شرح ما يصعب عليها من الدرس ، واسمعها تحدث به خالتي . . كنت ادرك الصواب ، لكني لا استطيع النطق به . لا اتكلم كما يتكلم خلق الله ولا اعبر عما اريد كما يعبرون .

رغم اني ادرك كل شيء ، واتنقل بين الأفكار بسهولة ، ويسر ، يفتقده الكثيرون من اقراني إلا انني لا اشعر بنسيم السعادة يتسرب إلى صدري ، فما زلت ارى ان اقل إنسان متمتع بحياته بافضل مني الف مرة .

اما انا . . ياسواد من انا . . ويا بؤس من انا . . يتيم واخرس . محروم وابكم . مظلوم وقعيد . لا املك وسيلة ، محاصر بسني ولساني المغلول واصلي المفقود ، وقريتي المظلمة المعتمة .

عم شحاته زوج ستي ترك ووالد خالتي فوزية ، رجل في غاية الطيبة . . لا ينطق بحرف ابدا كانه مثلي اخرس . يعمل في الغيط صامتا ويصلي . يصلي طيلة النهار ، لا كما يصلي الناس . يصلي في الفجر وبعد الفجر ، في الضحى والظهيرة وبعد الظهيرة . العصر والمغرب والعشاء وبعد العشاء .

انجب عم شحاته ثلاث بنات وولدا .

البكرية هناوة تزوجت منذ زمن ، وتسكن في القاهرة مع زوجها المفتش بالسكة الحديد . . تزورهم كل شهرين تقريبا .

الثانية خالتي فوزية ، والثالثة تعلمت بالمدرسة ثم التحقت بمستشفى بنها وتعمل حكيمة وبها تقيم .

اما الولد واسمه نصر فهو اكبر من فوزية ، اى الثاني في الترتيب انتقل للتعلم في الأزهر بالقاهرة . تلك المدينة الكبيرة التي نسمع عنها كما نسمع عن غول ضخم يبتلع من يذهب إليه ، ولا يعيده إلا في النادر .

سكن نصر باحد الاحياء عند اسرة فقيرة ، لكنها التهمته وزوجته إحدى

بناتها ، ولم يعد إليهم وانقطعت اخباره . وما عادوا يسالون عنه وما عاد يسال عنهم ، ولا يعلمون إذا كان قد انهى تعليمه ام شغلته الزيجة .

ليس في الدار إذن غير عم شحاته وستي ترك وخالتي فوزية .

ولديهم ثلاثة افدنة تجاور ارض عمي الشيخ بيومي يعمل فيها عم شحاته بمساعدة فلاح شاب اسمه عبد السلام صغير السن . طيب ومفعم بالصحة ويعمل كثور .

بعد ايام قالت خالتي :

— يظهر انه لا بد من المدرسة يا قاسم ، التعليم الصح يلزم له مدرسة .

اكدنا لها ان عمي لن يوافق . تابعتْ الدرس

قبل نهايته قالت فجاة :

— تحب تسيب عمك وتعيش معانا

تولتني الدهشة . . اترك عمي واعيش معهم . . هل هذا ممكن ؟ . . فكرت لحظات شغلت خلالها عن إمكانية الانتقال وفكرت في فردوس . معنى ان اترك عمي ان اترك فردوس ، إن فردوس هي الشمعة المضيئة في حياتي . يكفي انها الوحيدة في هذه العائلة الشرسة التي تناديني باسمي . وتسال عني عندما يجلسون للغداء ، ولا تاكل قبل حضوري . هذه الأمور لا ابيعها بالدنيا كلها ، فما قيمة الدنيا بالنسبة لي إذا لم اكن إنسانا . له قيمة وله اعتبار حتى ولو كنت . . لو كنت اخرس .

لكن انتقالي إلى بيت عم شحاته لن يمنع رؤيتي فردوس ، وحديثي إليها ، وإنصاتها بكل شعورها لهمومي ، التي لا استطيع ان اعبر عنها إلا بالاشارات . مجرد إشارات وكثيرا ما تغنيني فردوس عن الاشارات .

اضف إلى ذلك ان بيت عم شحاته كله ، حتى جدرانه وبهائمه تحبني .

قلت لخالتي : ان عمي صاحب الشوارب . صاحب الراي

قالت لابيها ان من الطبيعي ان يربى قاسم عندهم . اولا لاني ابنهم فهي خالتي ووالدها جدي ، وثانيا لانها تعلم الكثير عن غلظة عمي واولاده ، التي لا تنكرها فردوس ، وثالثا لانهم ربما يحتاجون إلي في البيت او في الغيط ، وخاصة بعد ان ذهب نصر ولم يعد .

في هدوء وافق عم شحاته ، ثم شرد يفكر في شيء ما ، واعتقدت انه يفكر في عمي وغطرسته .

وذهب عم شحاته ليطلبني من عمي ، ومن الغريب ان يقول عمي له :

— انا ما قدرش استغنى عن قاسم . . ده دراعى اليمين .

رد عم شحاته المستسلم دائما لحكم القدر :

— خلاص اللى تشوفه ياشيخ البلد .

وهم بالخروج .

حسبها عمي بسرعة . هل ما ينفقه على معيشتي يساوى المستفاد مني ويبدو انني بلا نفع فعلى . ولا دراعة اليمين او غيره . فقال لعم شحاته وكانه المتعطف الذى ياسى لآلام الآخرين :

— مجيتك يا عم شحاته كبيرة عندى . وما يصحش اريك مكسور الخاطر

صمت عم شحاته كعادته وانحنى وترقب . فربما يضيف عمي جديدا . ولما لم ينطق قال عم شحاته .

— يعنى موافق .

— علشان خاطرك بس ما تنساش ان قاسم ابن اخويا . . لحمى

— فوق راسى ياشيخ البلد .

— بكرة إن شاء الله يروحلكم .

فى اليوم التالى بعد ان عدت مع فردوس من المدرسة . تركتها تدخل دارها واكملت طريقى إلى بيت عم شحاته بنفس جلبابى . حافى القدمين . خالى الجيوب من جنس العملة .

فى الصباح كنت مع فردوس فى المدرسة . . فى داخل المدرسة وعلى نفس الدكة ليس بصفة رسمية ولكن كمستمع .

عينى عليها دائما . لا اقبل ان يؤذيها احد او يمسها بسوء . وكان امى اوصتنى بها .

صادقة الود . كانت تشتاق إلى كما اشتاق إليها . وتهفو إلى فى اللحظة التى اهفو فيها إليها . حتى اننا كثيرا ما نلتقى وسط الطريق . بينما اكون متجها إليها . تكون متجهة إلى .

لم نعد نلعب فى حوش هنداوى ولا عند . منخ الجمل . بجانب سور هنداوى وإنما اصبحنا نلعب فى دوار شيخ البلد .

ودوار شيخ البلد هو بيتنا نحن . وهو ياتى فى المرتبة الثانية بعد دواره الأصلى . . الأول يستقبل فيه ضيوفه ويقيم فيه الأفراح والليالى . اما الثانى فهو للاحزان ولمبيت العمال الذين يجلبهم لبعض الاعمال . وقد يذرو فيه القمح .

بيتنا فقد النطق مثلى . وفقد الدليل على ان شيئا كان هنا من قبل .

(٣)

في بادىء الأمر كان الأولادفي المدرسة
يقولون عني :

— الأخرس راح . . الأخرس جه .
الأخرس شاطر

حتى نداؤهم لي كان : يا أخرس
ولكنني بشهادة المدرسين جميعا ،
تفوقت عليهم في دراستهم التحريرية
سواء في الكراسات أو على السبورة
تفوقا ملحوظا ، مما جعل المدرسين
أنفسهم ينهرون من يسىء إلى بمناداتي :
يا أخرس .

— قطع لسانك منك له . . شاطرين في اللماضة بس . لكن في الدرس بتبقوا خرس وهو اللي بينطق .

لكن دفاع المدرسين كان في حجرة الدرس فقط ، وما ان نخرج منها حتى يعود الأولاد لمناداتي بعاهتي في الشارع . كنت اجرى وراءهم ، والذى الحق به « امرمطه » في التراب . . نعم . . يحق لي ذلك ويحق له .

لم يكن هناك من يغلبني من الأولاد ، حتى الأكبر مني بسنة او سنتين .
ولم يكن ليغلبني اجتماع ولدين في سني علي . لأني كنت قويا إلى حد ما .

وبعد أن انتهي من مهمة ضرب الأولاد الحق بفردوس ، وتكون بعيدا في انتظاري حتى نعود سويا .

فردوس

صاحبة اليد الطرية والعيون الجميلة . . العيون السوداء الواسعة

كعيون البقر . المكحلة بكحل ربانى ، واجمل ما فيها ابتسامتها الدائمة ، ولحلى من هذا كله قلبها الحنون الذى لا يكف عن السؤال عنى والاطمئنان على ، حتى ليدفعها هذا لتاتينى بنصيبها من الحلوى .

— كل ياقاسم

واسألها بإشارتى : إيه ده ؟

— بسبوسة

واشير لها بمعنى انه لا يوجد فى دكانة شربينى ولا دكانة الحاج عبده مثلها فتقول

لا . . دى من بنها ، اخويا هندى جابها بعد ما باع البهايم فى سوق الاثنين

واتذوق البسبوسة ، ثم اجمع اطراف اصابعى واقبلها ، قبلة ذات صوت بمعنى انها حلوة .

— بالهنا والشفا يا قاسم . . اروح اجيب لك كمان

واهز سبابتى بشدة : لأ . . لا

واقبل كفى ظهرا وبطنا . . اى الحمد لله

بعد إنتهاء المرحلة الإبتدائية اصبحت اللقاءات محدودة وبالصدفة . رفض عمى ان تكمل فردوس تعليمها ،اما عم شحاته فقد عرض على ان اتعلم إذا شئت ، لكنى رفضت وانا فى غاية التاثر ، وافهمته ان ما حصلته كثير جدا ، ولا يطمع فيه إنسان فى مثل حالتى ، وقد ان الأوان كى اهتم بالأرض .

نعم . . كان يتعين على ان أعطى كل وقتى للأرض بعد ان لاحظت سوء حالة عم شحاته وقلة جهده ، فقد اصبح وقد بلغ الخامسة والستين غير قادر على العمل ، ولو لمساندة عبد السلام

وفهمت أن عجزه وقلة جهده ليسا ناتجين عن شيخوخة ، وإنما بسبب غياب نصر ، وهو ولده الوحيد الذى يمثل له امنية الأمانى .

لم يكن نصر يغيب عن بالى ، وكنت اسال عنه باستمرار واستسهل ان اسال عبد السلام المزارع عن سؤال امى ترك .

اتذكره فى كل وقت وفى كل مناسبة ، واحاول بينى وبين نفسى تخيل شكله . ملامحه . طوله وعرضه . مدى قوته ورجولته . . مئات المرات حاولت ذلك ، لكن النتيجة ملامح مبهمة وصورة مشوشة ، لكنها عموما غير مقبولة . . فكيف اتصوره جميلا ونبيلا من ترك والديه فى هذه السن وارضه .

ومازا بعد ان يفقد احد والديه وارضه سواء بإرادته او بغيرها .

ملاذا فى الدنيا . الوالدان والأرض . الأوتاد المتينة الراسخة التى بدونها لا يكون للانسان طريق او جذور او هدف او طعم .

كثيرا ما كنت اسال نفسى فى حوار طويل ، لا ينتهى بنهاية اليوم ، ولكنه ممتد يطوى فى طريقه اياما .

ماذا كان يمكن ان يكون وضعى إذا كان نصر موجودا ؟ لاشك اننى لم اكن ابرح ديار عمى ، فلم تكن لهم بى حاجة ، ولكن هذا لم يكن ليمنع قدومى إليهم ، وعيشى معهم ، فلا يؤثر وجود نصر على وجودى لأن الفارق بيننا فى العمر يزيد على خمس عشرة سنة .

مرت عدة سنوات وانا لا اتخلى ابدا عن التفكير فى نصر ، او ان التفكير فيه هو الذى لا يابى التخلى عنى .

فإذا قاومت سيرته ، استدعاها خيالى وبدأ فكرى العمل فى حماس وقلق ، وقد كان يداخلنى إحساس بأن الظروف وضعتنى فى مكانه لآخذ حقه او نصيبه ، وكان هذا الشعور يضايقنى ويحاصرنى حتى لاحس بالضالة ، بل بالضعة ، إذ كيف اقبل ان اخذ حق احد او مكانه .

لكن ما العمل ؟ . . ماذا بيدى ؟ . . هل اذهب لاقول لعمى اريد ان اعود إليك . . غير معقول !

وهل اقول لعمى شحاته وامى ترك وهما اصحاب فضل على كبير

— انا متشكر وآسف . . ساترككم لاعيش وحدى .

اطرد الهواجس بشدة ، ازيحها من طريقى ، لانى لا استطيع تحمل ما تحملنى إليه ، لانى لا اجد فى نهايتها إن كان لها نهاية إلا طرقا مسدودة .

كان عم شحاته هو الرجل الثانى الذى يحتل فكرى ويشغل بالى ، فحالته تسوء وصحته تذوى وجسده يذبل ويزداد انحناء ، كما كان يغرق فى الصمت والانكماش والتقوقع والانزواء وكانه يستعد للرحيل ، بان يروض نفسه على مفارقة الدنيا

وكلما وقعت عينى عليه ، فكرت فى ابنه .

إلى ان كان يوم

عدت بعد الغروب من الغيط وسعى إلى كلبى ، شهم ، رفيقى وانيسى ، الذى اخذته صغيرا من عزيز ابن عمى ، وهو كلب اصيل ويدرك الامور بذكاء وحس خارق للعادة .

وجدت أمى بالردهة وسالت عن ابى ، قالت : راح يصلى لكنه مش تمام

تحويل الحوار ( ) ح د

قعدت إلى جوارها واشرت لها بما معناه ان ابى حل عليه التعب فعلا ، ويجب ان نستدعى له نصر ، فيشد من ازره وتنتعش حاله .

ثنت ركبتها وحطت عليها مرفقها ، واحتضنت راسها بيدها . نظرت إلى الجدران الواقفة فى صمت كانها تشهدها ثم قالت :

— الله يسامحه . .

تنهدت بعمق ، وساد صمت جديد غير الصمت الاول لتقول فيما يشبه العتاب :

— اولاد الزمن ده إيه اللى جرالهم . . ليه بقت قلوبهم حجارة قاسية قوى يا قاسم

اشرت إليها بما يعنى ان نصر كان غاضبا لانهم لم يقفوا معه فى زواجه . . قالت :

— ده جه وقال انا عايز اتجوز ، طيب يا سيدى ولو انه مش وقته ، لكن نشوف لك واحدة تليق . . قال انا شفت خلاص . . طيب . . فين هى نخطبها لك . . قال فى مصر . . بنت صاحبة البيت اللى انا ساكن فيه . . طيب نسال عليهم . . قال سالت . . ابوه قال له لابد يا بنى نسال . . سؤالك غير سؤالنا . . قال انتم هنا حتسالوا إزاى . . ابوه قال له اختك هناوة وجوزها ماهم فى مصر يسالوا عنها . . ما بقاش راضى . . لكن ابوك اصر نسال عليهم ، وبعت يجيب الأستاذ شندى الله يكرمه جوز اختك هناوة جه الراجل طوالى . ابوك قال له نصر عايز يتجوز فلانة بنت فلان اللى ساكنة فى الحتة الفلانية . . شوف الناس دول واسال عنهم كويس وتعال قوام قوللى .

ابوك شحاته ادور لنصر وقاله ، وانا يا سيدى ثانى يوم اخطبها لك . سال شندى عن العروسة واهلها لقاهم ناس وحشين . ناس سو جه قال لأبوك شحاته . . الامر كيت وكيت

ابوك شحاته قال لنصر بلاش منهم . . نصر قال لا بد منهم ، يا بنى بلاش منهم . . قال لا بد منهم ، وبعدها اتزربن وقام . . نفذ اللى فى دماغه ، ومن يومها ماورناش وشه .

ماسبناهوش ، بعتنا له شندى يسال عنه ، بقى مرة يقابله ومرة يتهرب ، لما بطل يروح له .

اشرت لها بمعنى : اسافر له واجيبه

ابتسمت فى الم

اسكت يا قاسم ، ما تدوخش نفسك معاه . . ده ولد راسه ناشفة ، انا مش عارفه إزاى قلبه طاوعه يسيبنا ، إزاى روحه ترضى له يغيب عنا ، وهو عمره ما غاب يوم واحد .

كان يسافر للأزهر فى مصر ، ويرجع فى نفس اليوم . . إنشا الله بعد نص الليل . نلاقيه ينقر بضوافره على الباب ، اكون صاحية ودنى من الشارع واقوم افتح له ، يبوس ايديه ويقول :

— انت صاحية يا ام

— امال يا بنى

مربوط بقلبى ، مهما يروح بيرجع . . دلوقت قطع الحبل . . ولو انه ما يهنش عليه اقطع حبله ابدا من قلبى . . هوه بيشيب الناس غير عمايل ولادهم . . المثل اللى بيقول ، اللى ما تربيهوش امه وابوه تربيه الأيام والليالى ناقص . . مفروض يقولوا ، واللى ما تربيهوش الأيام والليالى يربوه ولاده ، اشرت لها على شعرى وصدرى ، ففهمت

— أيوه النسوان . . تمام النسوان . . بس ليه هم يلوفوا على الجدع كده من غير حتى ما يسالوه على اهله . . والله يسامحهم . . القصد . . ربنا يحرسه ويحميه .

مرت شهور ونسينا ـ ربما انا فقط ـ موضوع نصر

وكنت اجلس مع امى ترك ـ وفجاة قالت لى :

— انت مش كنت قلت لى يا قاسم . . انك عاوز تشوف اخوك نصر

فدهشت ، لكنى فرحت

وافقتها بلهفة ، قالت وهى مطاطاة الراس :

— طيب يا قاسم

اشرت إليها بما يعنى : إيه المناسبة لو فيه إيه

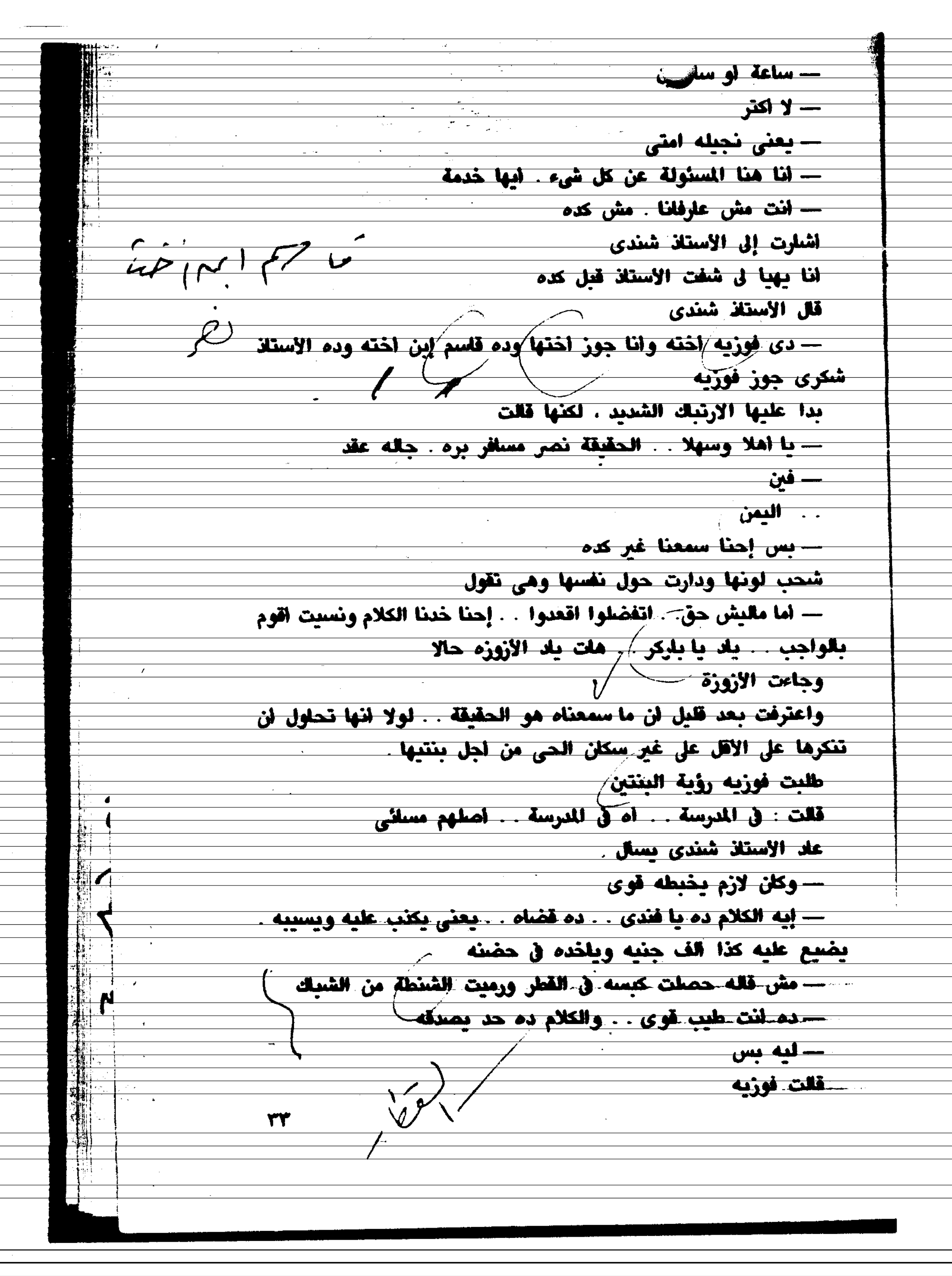
انهمرت دموعها ، وكانها كانت محتجزة خلف سد ثم انهدم ففاضت

اهتز جسدها بعنف ، واخيرا جففت دموعها بطرف طرحتها . . عدة مرات والنبع لا ينضب .

قالت : جانى امبارح فى المنام . . وقال الحقينى يا امه . . فيه حاجة بتشدنى

ذعرت . اقشعر بدنى ، لأن امى ترك حساسة جدا وطيبة . وحكت لى خالتى

فوزية انها مارات حلما إلا تحقق كما راته او قريب جدا منه
ربت على كتفها مهدئا ، واعدا بتنفيذ رغبتها
قالت : روح الاول نادى الاستاذ شكرى جوز خالتك فوزيه علشان يبقى يروح معاك
ورحب الرجل بكل حماس ، فهو لا يالو جهدا فى إرضاء حماته وحماه .
فى اليوم التالى ارتديت افضل ملابس وخرجت مبكرا لامر على فوزيه وشكرى ، وادرك ، شهم ، انى مسافر ، لان شكلى غير طبيعى بالنسبة له .
فاصر على ان يصحبنى ، اخذ يقفز على ويتمسح بى ويجرى ورائى .
لا يريدنى ان افارقه . ربت على ظهره وامرته بالرجوع
مضيت خطوات بعيدة عنه وانا افكر فى الكلب . . فى مشاعر الكلاب ولغتها ونظراتها . . الكلاب بالذات على حسب علمى دون كل الحيوانات ، بل والبنى ادمين ايضا ، لها حساسية خاصة وفيها نبل . ودودة وتحفظ العيش للغريب فما بالك بالقريب . سبحانك يا رب . افقت لنفسى وإلى المهمة المكلف بها ، ولكنها كانت بداية سيئة إذ افكر فى الكلاب وانا ذاهب للتفتيش عن نصر .
يا رب الكون والقدرة . يسر لنا كل عسير .
بلغنا القاهرة ومضينا من فورنا إلى منزل الاستاذ شندى وبعده إلى السيدة زينب ولم ترض هناوة ان تذهب إلى اخيها نصر ، لانها كما قالت :
— قرفانة منه ومن عمايله ... عمايل ما تشرفش ابدا .
قال الاستاذ شندى ان خال نصر اصبح معلما فى منطقته ، له هيبة وله صيت . يمكن ان تسال عنه اى شخص ، على طول يقول لك
اه المعلم نصر ... حد ما يعرفش المعلم نصر
وجدنا صيته قد وصل إلى آخر الدنيا
لكننا بعد ان بلغنا حارتهم ، زكمت انوفنا اخباره الطازجة ، إنه الآن بالسجن
استقبلتنا زوجته امام مخزن الارز . سالنا عن نصر
— ايها خدمة
— عايزينه هو
— مش موجود
— إذا كان مش ح يتاخر ننتظره
— ح يتاخر



— ساعة او سا[illegible]ن

— لا اكتر

— يعنى نجيله امتى

— انا هنا المسئولة عن كل شىء . ايها خدمة

— انت مش عارفانا . مش كده

اشارت إلى الأستاذ شندى

انا يهيا لى شفت الأستاذ قبل كده

قال الأستاذ شندى

— دى فوزيه اخته وانا جوز اختها وده قاسم ابن اخته وده الأستاذ
شكرى جوز فوزيه

بدا عليها الارتباك الشديد . لكنها قالت

— يا اهلا وسهلا . . الحقيقة نصر مسافر بره . جاله عقد

— فين

. . اليمن

— بس إحنا سمعنا غير كده

شحب لونها ودارت حول نفسها وهى تقول

— اما ماليش حق . اتفضلوا اقعدوا . . إحنا خدنا الكلام ونسيت اقوم
بالواجب . . ياد يا بايكر . هات ياد الأزوزه حالا

وجاءت الأزوزة

واعترفت بعد قليل ان ما سمعناه هو الحقيقة . . لولا انها تحاول ان
تنكرها على الأقل على غير سكان الحى من اجل بنتيها .

طلبت فوزيه رؤية البنتين

قالت : فى المدرسة . . اه فى المدرسة . . اصلهم مسائى

عاد الأستاذ شندى يسأل .

— وكان لازم يخبطه قوى

— إيه الكلام ده يا فندى . . ده قضاه . . يعنى يكتب عليه ويسيبه .
يضيع عليه كذا الف جنيه وياخده فى حضنه

— مش قاله حصلت كبسه فى القطر ورميت الشنطة من الشباك

— ده انت طيب قوى . . والكلام ده حد يصدقه

— ليه بس

قالت فوزيه

— خلاص يا استاذ شندى . اللى حصل . مكتوب

قالت زوجة نصر :

— براوة عليك . مكتوب .

عدنا إلى بيت الأستاذ شندى صامتين ، كان زوجة نصر خلعت من افواهنا الألسن .

هاجت هنومة عندما سمعت الأخبار ، ودام سخطها سهرة كاملة طولها عدة ساعات من الليل

اتفقنا ونحن في طريق العودة صباح اليوم التالى على الكذب . . لقد سافر إلى بلد عربية هو وزوجته وبنتاه .

ساور عم شحاته وامى ترك الشك فى الخبر . . لم يقبلاه بسهولة . . وحمدت الله فى هذه اللحظة اننى لا انطق ، حتى لا يسالانى ، لانى لا احب الكذب حتى ولو كان لصالحهما . .

سوف يتحمل الأستاذ شكرى وخالتى فوزيه العبء كله .

لم يطل صمت امى ترك ، بعد خروج خالتى وزوجها التفتت إلى :

— قاسم . . قول يا بنى . . صحيح نصر مسافر بره .

أه . . حتى بكمى لم يفدنى . . لا بد ان تسال ولا بد من البحث عن الحقيقة وإن طال الزمن . والكذب بلا رجلين . سوف تحاول امى ترك البحث عن الاجابة حتى لو سالت الميتين .

ماذا اقول ؟ هل اكذب انا الآخر . . الكذب ارحم يا ترى أم نقض اتفاقى مع خالتى وزوجها

لا . ليست القضية هكذا . . القضية ليست المقارنة بين الكذب ونقض الاتفاق إنما المقارنة بين نتيجة الخبرين عليهما . . السفر ارحم بهما لم السجن . .

إنه السفر بلاشك . ولكن السفر طريق الكذب

السفر أرحم بكثير . لكن مشكلتى الأولى والأخيرة فى هذه الدنيا . . الكذب . الكذب هو الذى احرق بيتنا وقتل امى واخرسنى وهو الذى يسرق ويقتل ويخرب البيوت ، الكذب هو الذى يترك فى الدنيا الظالمين يزداد ظلمهم مع الأيام وتتحول حياتهم كلها إلى ظلم للعباد . ربى هل كل من ينوى الكذب يسال نفسه كثيرا مثلى . .

آه . ولكنى أحب أمى ويزعجنى دمعها الفياض وقلقها الدائم على نصر فلأكذب وأمرى إلى الله .

بسطت كفى إلى الفضاء أمام فمى ونفخت فى الهواء . أى أنه ركب الطائرة

— بالحق ياقاسم

هززت راسى وانا اقاوم الانهيار . فتحت عينى إلى اخرهما ، حتى تعلم مدى صدقى وثقتى بما اقول ، بدوت كالأبله

— منين وعرفت فين يا قاسم

آه . . من الذى قال ذلك . . زوجته . لقد سافرت . إذن أمها . لا . . لا . . ستكون أمها كاذبة أكيد فى نظر أمى . . لا

أشرت إليها بما حولنا . ففهمت

الجيران

أومات لها . . أى نعم

تنهدت . . أحسست أنها ارتاحت قليلا ، وأخذت أرقبها بنصف عين لأطمئن .

تسرب الخبر للناس جميعا ، ولا أدرى كيف ؟ . . فقريتنا لا تعرف الأسرار وكل بيت فيها كالغربال .

يعرف الناس كل شئ فيها ، حتى لو كنت أنت الوحيد الذى يعرف ولم تخبر به أحدا . يخرج منك السر وأنت نائم وأنت ماشى ، وأنت تتكلم وأنت لا تتكلم ، بل وأنت تنكره

أهل بلدنا يستطيعون معرفة الأسرار حتى دون أن ينقلها إليهم أحد فكثرة اهتمام الشخص بالآخرين وتفكيره فيهم بلا داع ، تجعله يحدس أخباره ويحلل مشاويره ويتنبأ بسلوكه . بل ويتجاوز الأمر هذه الحدود ، فقد يحمل الشخص هم الآخر دون أن يحكيه له ودون أن يطلب إليه المشاركة . لأنه من غير المعقول أن تعرف عنى سرا مكتوما أو خبرا معلوما دون أن تأسى له أو تفرح ثم تفكر فيه وتفكر ، ويصبح همى مع الأيام همك وشاغلى شاغلك وحكايات للحديث أثناء لف السجائر وحتى ينضج الشاى على النار

هم كثير يحمله الناس . . هم كلام ، يهد الأكتاف ويحنى الظهور ، حتى البيوت أيضا ، تحمل الهم وتنحنى . . تنحنى حتى تهبط وتهبط . . ونهبط جميعا .

مرت شهور وجاءت خالتى هناوة لزيارتنا . فور دخولها قالت لأولادها :

— انت يا واد انت وهيه . . على الغيط على طول . مش عايزه اشوفكم إلا المغرب ، وانتم راجعين مع البهايم

وتضحك

— الغيط ما تخلوش فيه قشاية واقفة على حيلها

وتضحك

— مش عايزة لمونة على الشجرة

وتضحك

خلوا عاليه واطيه

والأستاذ شندى داخل فى بعضه من الكسوف

جبلت خالتى هناوة على الصراحة المطلقة والجراة والمواجهة والغضب السريع والفرح السريع

لا تكف عن الثرثرة والضحك وقزقزة اللب والفول السودانى والأخضر ومضغ اللبان . . والكلام مع هذا كله ينطلق ويرن فى الدار ، فيخلقها خلقا جديدا ويشيع فيها الحياة .

لم تستطع خالتى ان تكتم فى قلبها سرا ، فقالت الحقيقة كاملة لأمى عن نصر

كان ابى يرقب الحديث وينصت إليه ، ولكنه ازداد بكما على بكم ، ومضى يعد لنفسه سيجارة باطراف اصابعه المعروقة ، لينفثها ويخبىء فيها همه فقد تعود على الصبر . . الصبر دائما والأمل فى الله . . هذا هو عمى شحاته

ايام قليلة عاشها ابى بعد هذا الخبر . كان ما قالته هناوة عن نصر ختام سيرته فى قلب ابيه ، بل وكان السكين الذى قطع الحبل الذى كان يشد عم شحاته بالحياة إلى ان ياتى نصر . . لكنه لم يات برغم طول الصبر والايمان .

اربعة عشر عاما او يزيد من عقوق وغربة . كتم عمى فى صدره حنقه عليه وشوقه إليه وامله فيه ثم كانت الخاتمة .

السجن لنصر والقبر لأبيه الحنون الوديع الكتوم الأبكم .

زفر من عينيه دمعتين . دمعتين فقط . خرجتا بصعوبة بالغة . وكانهما أخر الدموع التى بقيت بعد الجفاف . . أسلم بعدهما الروح لصاحب الأرواح .

عقدت أمى ترك طرحتها السوداء على راسها طيلة عمرها ، ولم تبخل الدموع عليها حتى اوشكت ان تفقد البصر .

(٤)

توليت كل مسئوليات الغيط بعد وفاة عم شحاتة ، وبقى عبد السلام يساعدنى . حاولت تعويض أمى عما اصابها ، لكنها لم تكن تفرح لما يفرح . مضت فى حزنها الهادىء الوديع فى اصرار ، كانها تنفذ وصية ، أو كأن روح عم شحاتة حلت بها فاصبحت مع الأيام هى عم شحاتة .

لم ادهش لهذه الحالة الجديدة . ان تحل روح عم شحاتة الذى رحل عن دنيانا إلى الآخرة فى جسد امى ترك ، بل الذى يدعو للدهشة حقا هو ان هناك ارواحا لأحياء تحل فى اجساد احياء مثلهم . تنصب فيهم وتنتقل اليهم ، فتتحول طباعهم عما كانت عليه ، بل وتتحول ملامحهم لترتدى ثيابا تناسب الروح الجديدة ، تشبه إلى حد كبير صاحب الروح .

كانت زوجة عبد السلام تساعد امى فى تنظيف الدار واعداد الطعام . وكنت مشغولا باليوم الذى تسكن فردوس دارنا ، وانتظر يوم ان تصبح بكل حواسها لى .

المشكلة انتى لا اعرف كيف اعرض الموضوع على فردوس .

فردوس حبيبة قلبى .

احبها بلا كلمة . بلا مقدمات . بلا خطابات . بلا همس . بلا مواعيد . وبلا اتفاقات احبها .

حين القاها اتحول بلمسة سحرية خفية إلى قلب ينبض ، اتحول كلي إلى احساس محض وشفافية ، واطير . . اطير كنسمة عصارى في صيف . . اطير واتفرج على الناس والدنيا من مكان عال ، فاجدهم بعيدين جدا وصغارا جدا .

ولأني على يقين من شوقي المجنون لفردوس ، وعلى يقين ايضا من شوقها لي قررت ان اكون يسيرا لها وفي متناول يدها .

بنيت لي « خصا » في آخر حدود ارضنا وارضهم ، بحيث اذا كانت في ارضهم يمكنها بخطوة واحدة ان تدخل « الخص » .

نشرب فيه الشاي على نار الحطب ونشوى الذرة ونلعب السيجة يشاركنا احيانا اخوها عزيز .

وعزيز شاب طيب جدا ، يناديني منذ كبر : يا قاسم .

هو أطيب ابناء عمي ، يقضي معظم نهاره في غيطهم او غيطنا يكتب الشعر والأغاني ويقرأ الكتب ، وأنا من ورائه التقط منه الكتب التي ينتهي منها ، واسأله عما يعسر امره علي .

وله كلام حلو يعجب البنات وشكله ايضا حلو . يمثل لهن في بلدنا فتى الأحلام .

لم يعد لقاؤنا سهلا بعد ان كبرنا ، واصبحنا نخشى السنة الناس ، لانهم لن يقولوا عنا خيرا ، ولن يذكرونا الا بالسوء . انهم يذبحون الطير وهو في السماء . يقتلون الطيب ويحكمون بالاعدام على البرىء . هكذا في بساطة . في جلسة من جلسات المساء ، دون ان يهمهم شيء ، أو تتحرك فيهم شعرة من الاحساس بالذنب . تسالي .

اذا تناثرت الاشاعات فانها تصيب واحدا بعينه ، ففي الامكان ان يتهم شخص بالتحديد . اى من الممكن الاشارة إلى المظلوم ، لكننا في العادة لا نستطيع تحديد الظالم .

يمكنك دائما ان تعرف المجني عليه ، لكنك نادرا ما تعرف الجاني .

كثيرا ما كانت فردوس تاتي إلى الخص ، لتتحدث إلي و « تفضفض » .

كانت كمن يدور وسط الناس فيملأ جرته ، ثم ياتي إلى الخص ليفرغ ما فيها .

حدثتني عن ابيها الذي لا يريد ان يغير طباعه المادية ، وسعيه الدءوب لجمع المال ، حتى لو شرب في طريقه عرق الفلاحين واكل لحمهم ، مساندا بصفته شيخ البلد - العمدة في ظلم الناس والتحكم فيهم .

اشرت اليها بمعنى انهما جمعا مالا كثيرا من الناس ، قالت : مرة علشان

رصف الطريق من البلد للسريع ، ومرة علشان المية تيجى الكفر . . لا الطريق اترصفت ولا المية جت ، لكن الفلوس اختفت .

قالت انها لا تجد نفسها فى الدار الا غريبة او ضيفة ، حتى الضيفة المفروض ان يرحبوا بها ، لكنها تدخل فلا يعبأ بها احد ، وتخرج فلا يسأل عنها اخ او ام . .

اخويا الكبير هندى بينهب ويحوش من ورا ابوه ، ويجيب دهب لمراته ، ومراته زينب بتدس تحت الماجور ، وفى القادوس اللى تحت السرير . وانا عارفة وساكته .

وامى حفيظة الشلل مكلبش فيها من سنين ، قاعدة ما بتتحركش وزينب سارحة بابويا ، واكلة بعقله حلاوة . اول ما يدخل ابويا ويقول :

— يا أولاد .

تظهر له زينب بسرعة زى الريح وتقوله : أهلا يابا . اتفضل وتسحب منه المهرة على الزريبة ، وتقف قدامه زنهار . ويسألها عن بنتها سيادة ، تقوله خدامتك يابا ، اجرى يابت يا سيادة حبى على ايد سيدك ده هو الخير والبركة . .

يديها ابويا القرش والقرشين ، ويسألها عن ابنها شوقى وترد عليه بفخر : ما انت عارف يا حاج . . ما بيسبش الغيط ، طول النهار ايده بايد الرجالة ، لكن الولد التانى فى الشارع على طول . مش عارفه اتلم عليه ورمزى رضع ونام . . اصحهولك ، ويقولها ابويا : لا . . على ايه .

تفضل تتكلم طول النهار عن عيالها الأربعة ، وتغيظ فى سرية مرات أخويا جبريل ، اللى يا عينى ما بتخلفش ، واتعقدت .

سبع سنين وهى بتروح لحكما وشيوخ . مفيش فايدة ، ودكها أم لسانين تقوم من الحبل تحبل ، وتقوم من الحبل تحبل .

طول النهار بينهم نقار ومكايدة ومقالب ، ويتهموا فى بعض . ودى تحكى لجوزها ودى تحكى لجوزها . والرجالة تعبى وتخبى وكل واحد فى دماغه حاجة .

اما صلاح أخويا المحامى اللى قاعد فى بنها على طول ، ما بيورناش وشه زى اللى ما صدق اتخرج . اتجوز وفتح مكتب ونسى كفر سند نهوى ونسينا . حتى احنا كمان نسيناه ، لأن مراته مطفشانا ، طالعة فيها وعاملة الأفرنكا . . علشان كده ما بنروحش عندهم مهما حصل . أصلها راكباه ومتحكمة فيه . وهوه . . هوه مش شاطر غير فى المحكمة ، كل القضايا بيكسبها ، لكن

فى البيت . بيحطوه فى القفص . دايما متهم . ولا يعرفش يترافع ولا بكلمة .

★ ★ ★

رغم انهم اخوة ومن اب واحد وام واحدة . وعاشوا عمرهم كله مع بعض فى بيت واحد . الا ان افكارهم مختلفة . وطباعهم متنافرة واطماعهم متعددة وفى اتجاهات متفرقة . .

وبينهم فربوس ضائعة وغريبة . لا تستطيع ان تكمل حديث لمدة خمس دقائق مع اى واحد منهم عدا عزيز . وعزيز نفسه مستغرق فى قراءاته التى لا تنتهى . واذا توقف ساعة عن القراءة فهو سارح . هائم يبحث عن بنات افكاره وملهمات اشعاره .

وهو زاهد فى الدنيا بكل مظاهرها . لا يعبا بها ولا بالضجة التى تقيمها على كل شىء . هو لا يحفل بشىء الا بالقراءة والمناقشة . . اما العمل والأكل والزواج والمستقبل المادى ونصيبه من ثروة ابيه . فلا تخطر له على بال .

نموذج رائع . يعجبنى جدا واتمنى ان اكون مثله . لكن . . شتان بينى وبينه فلا ظروفى ظروفه ولا حالتى حالته .

جاءتنى مرة وجلست صامتة امام الخص . . قدمت لها البرتقال واعددت الشاى . . وسالتها عما بها فانكرت ان بها شيئا . . لكنها ظلت فريسة الحيرة والشرود . . قولى يا حبيبة القلب قولى . .

انا يا فربوس اقرب اليك من كل الناس حتى اهلك واحقهم بك . واسمعهم لك واطوعهم لبنانك . وادناهم لفكرك واكثرهم احتكاكا بك منذ الطفولة .

بل انتى اقرب اليك منهم حتى فى السن فلا يفرق بيننا غير عام . . وتقارب العمر يؤدى إلى تقارب المشاعر والأفكار .

فما هذا الذى اعتراك اخيرا وضيع خطواتك وبدد فكرك . . ما هذه الخيوط التى تشدك بعيدا عنى . . تجلسين إلى جوارى لكنك تسافرين عنى بروحك ويبقى وحده جسدك .

لست بكلك معى . ربما نصفك فقط او ربعك .

متى تلوح لى الفرصة وتكونين لى كلك . وبكل ما تملكين من حواس واحساس معى فاقول لك بكل ما املك من لغة واشارة احبك . . احبك . .

لكنك بعيدة . حائرة . فلم البعد ولم الحيرة ؟ . . اذا كنت فى حياتك وحيدة . فانا الوحيد الذى يستطيع ان يؤنس وحدتك .

اتريدين فى المؤنس لغة وكلاما . ام تريدين اذنا وقلبا وصدرا وذراعا .

اذا كنت تريدين كلاما ، فهذا لا استطيعه ، وان كنت تريدين اى شىء آخر فعندى ما تبغين واكثر .

الا تشعرين بدقات قلبى . الا تثقين فى صدق مشاعرى ، التى لا يشك فيها مخلوق .

قالت فردوس فجأة .

— سلام يا قاسم .

اشرت عليها بالبقاء .

— قعدت كتير . سلام .

مستحيل . . كدت انطق واقول لها . .

— ارجوك . افضل جنبى . حسسينى بالدنيا اللى مش حاسس بيها ومش حاسة بيه . اسمعى دقات قلبى جايز تعبر لك عن اللى ما قدرش اعبر بلسانى عنه .

امسكت يدها . كان هذا هو الحل الأخير بالنسبة لى . . ضغطت عليها . كدت فى حنان اعصرها . يا يد حبيبى . قولى لها ما بى . ابلغيها ما بصدرى .

اكتشفت فردوس بعد لحظات ان يدها ساكنة فى يدى وانا متشبث بها فسحبتها ، وتذكرت كلامها السابق لى .

انت يا قاسم اخويا بس مش من امى .

انا لست اخوك يا فردوس . يجب ان اكون حبيبك . . اود ان ارتقى عن درجة الأخوة .

جاءت فى اليوم التالى وكنت انتظرها على الجمر ، وقررت ان افاتحها بحبى وان اضع النقاط على الحروف ، فالى متى اظل سؤالا حائرا بلا جواب .

جلست واخذت تنظر إلى ، فايقنت انها مثلى تنتظر وعلى ان ابدأ . وهممت ان اشير لها فاذا صوت عزيز قادم يغنى .

— باحلم بيك انا باحلم بيك

تنهدت ولم يزعجنى صوت عزيز ، لانى اعتقدت انه يقولها بدلا منى ، جلس معنا وبدات اضطرب مرة اخرى ، وبدا وجود عزيز يتحول إلى عبء بالنسبة لى .

ثم انتقل إلى شجرة قريبة واخرج من جيبه ورقة وقلما ، واعطانا ظهره وبدا يكتب ، لكن ذلك لم يدفعنى للعمل . . لم اجسر ان احرك ساكنا وبقيت نظراتى تحوم حولها . تفحصها وتحتضنها وتقبلها ، وتتحدث اليها ،

وفردوس تعبث في الارض تارة ، وتمشي تارة ، ثم اتجهت إلى عزيز وعادت لتقول :

يللا يا قاسم روحني . احسن عزيز مستنى الوحى ومش فاضى لى .

اسعدتني دعوتها . فرحت اتمنى لعزيز استمرار صداقته للوحى .

احسست وانا ارافقها انى امتلكت وحدى قمر السماء .

سرت إلى جانبها ببطء . المس الارض بحنان وانظر بفرح إلى كل ما حولى . كانت كل الأشياء فرحانة .

امسكت يدها فسحبتها برجفة ، عادت يدى تبحث عن يدها حتى قبضت عليها ، ومرة اخرى سحبتها قائلة .

— مالك يا قاسم .

اقشعر بدني ولم انطق بحرف ، ولم اشر ولم انبس ، ولم اتبين معالم الطريق . . مجرد اقدام تمشى تحمل جسدا ورغبة قوية في البكاء .

تنهدت بصعوبة لأفرغ قلبى مما به . لكنه لم يفرغ .

تنبهت فجأة وانا افكر فيها ، إلى ان مظهرى على غير ما يجب ان يكون . فقررت اجراء تحسينات عاجلة على مظهرى لأحوز رضاها ، وحرصت على تسوية شاربي وتمشيط شعري .

اصبحت ارتدى في الشتاء الجلباب الصوف والحذاء الطويل الذى يلمع باستمرار ، وفى الصيف جلبابا افرنجيا بنصف ياقة ، واذا كنت متجها إلى الغيط ارتدى جلبابا نظيفا مهندما اخلعه عند وصولى ، واستبدل به جلبابا قديما اربطه على وسطى وارفعه إلى ركبتى حتى لا يعوق حركتي . وعند عودتى البس الجلباب النظيف والراديو الصغير معى .

حرصت على ذلك كله ، وادركت مما سمعت انه كان لازما . وكان له تاثير كبير على نظرة الناس لى .

سمعت احدى الفتيات اللائى كن يملأن جرارهن من « المتر » تقول :

— شوفوا الأخرس العايق .

ردت الأخرى ـ طب واش قمر .

اما الثالثة فقالت ـ بس يا خسارة ما بينطقش .

هل الأبكم عديم الشرف . يا بلد تاكل الولعة .

ومررت بدكان الحاج عبده ، فقال رجل كان يجلس على دكة الدكان مع آخرين .

— الاخرس ده يعنى شايف نفسه قوى .

ورد الثانى - امال . . مش بيرعى فى تلات فدادين وبهيمتين وجحش وطورة غنم .

مضوا كعادتهم القبيحة فى السخرية من خلق الله .

— ده بيقولوا ح يرشح نفسه للعمودية .

— خليه يخش . الله زيه يريح . ما يقعدش يكسر فى روسنا بكترة الكلام .

— لابد ان يتضمن حديثهم اهانة لى مهما اعجبهم حالى ، اذ يحسبنى بعضهم لا أسمع .

ولا بد ان يقولوا : يا خسارة لو مكانش اخرس .

إلى هذا الحد انا مشوه وبى عاهة تحول بينى وبين الحياة .

.. .. ..

على اية حال رايكم لا يعنينى ، انا يعنينى فقط راى فردوس . . الغالية فردوس . . ولكن اين فردوس .

إنها فى هذه الأيام تسافر إلى بلاد بعيدة لا اعرفها ، وهذا الأمر يقلقنى ولا يخفف عنى ، الا سماعى بانها رفضت العرسان الذين تقدموا اليها ، وكلهم من عائلات كبرى فضلا عن الشباب والعلم .

فى اخر مرة قالت لأبيها : مش دلوقت يابا . ماليش كيف .

فزعق ابوها : ايه هو اللى ماليش كيف ، ومش دلوقت . . ده لعب عيال ودلع بنات .

قال هندى : خليها يابا براحتها . هوه احنا يعنى مش قادرين ناكلها .

.. .. ..

ولكن لماذا رفضت ؟ . . سؤال يبتعد ثم يقترب ويدق راسى بالحاح ، ثم يختفى ليعود إلى كلما رآنى وحدى .

هل يا ترى هذا الرفض من أجلى ؟ لا اظن .

ولماذا لا يكون من أجلى . .

واذا كان من اجلى ، كان عليها ان تخبرنى . ولكن كيف تخبرنى ؟ . تقول لى لقد رفضتهم من أجلك .

وهل من المعقول ان ترفض كل هؤلاء وترضى بى انا ؟

ولماذا استبعد هذا ؟ . الا يقولون ان الحب يصنع المعجزات ، وكم سمعنا

عن ذوى مكانات ومقامات عالية تزوجوا من مكانات ومقامات دونهم بكثير .

وانا لست دونها . ليس هناك الا . . الا مسالة النطق .

شىء يغيظ حقا ، لو كان هناك من يقوله لها ولهم بدلا عنى .

وايه يعنى الكلام . هوه انا بازرع الأرض بالكلام ، واللابكتب بلسانى دنا حتى بقرا الجرايد والكتب حمامة) احسن من اللى عاشوا طول عمرهم فى مدارس ، وهو الانسان بيتجوز بلسانه ، واللا يتعارك مع الأندال بالكلام .

اللسان مالوش ريحة اللازمة . ده اللسان يهيا لى بق موضة ، زى السجائر المكنة كده ، واللا الستات اللى بيلبسوا نضارات ، أو بنات البندر اللى بيلبسوا بنطلونات . يعنى ممكن الانسان يستغنى عنه وساعتها ح يرتاح .

على أية حال . انا متاكد انها اذا كانت حائرة ، فلأنها لا تجد من هو احسن منى ، ولكنها لا تستطيع ان تقول للناس او لأبيها انها تريدنى لانهم سيقولون لها فى دهشة .

— ايه . . تتجوزى الأخرس .

ساعتها سترد عليهم .

— ايوه ح اتجوزه .

— انت اتجننت .

— ليه بقى يابا .

— ازاى تتجوزى الأخرس .

ويتدخل هندى .

— احنا قولنا صحيح لازم يكون لك راى ، بس احنا اللى نختار ونعرض عليك .

— وانا كمان ممكن اختار واعرض عليكم .

ويهب جبريل ليقول فى انفعال :

— لا . . ده مش شغلك .

— لا شغلى .

— اخرسى . . جتك نيلة فى ذوقك .

— ماله ذوقى . راجل شريف . ايه عيبه .

ويهيج ابوها :

— انكتمى خالص . . مش ح تتجوزيه .

— مش ح اتجوز غيره .

— قومي انجرى من قدامي . يلعن ابوك سابيه .
ويؤيده هندي بحماس :
— ده زمن مهبب ، خلاص العيار فلت .
ويعلق صلاح اذا كان موجودا :
— ال راى ال . . واللى زى دى يبقى لها راى .
ويتدخل عزيز الذى يحضر متاخرا عن النقاش حين تبلغه الضجة :
— ومايبقاش لها راى ليه . . بهيمة .
وينظر عمى إلى عزيز فى تقزز دون تعليق . . ويقول هندى :
— خليك انت فى الكتب اللى انت طول النهار حاضنهم زى حفيظة العمشة اللى بتمشى تلم الورق من الأرض .
لا يابه عزيز ويحاول تهدئة الموقف المشتعل .
— ما هو يابا بدل ما تطلعوا فيها كده كلكم . فهموها . ناقشوها .
ويرد صلاح حتى لا يترك مجالا لعزيز كى يتفوق عليهم فى فكره وحتى لا يتهمهم بالجهل والتعصب :
— مش كل حاجة تقبل المناقشة يا سى عزيز يا شاعر .
ويرد عزيز فى ثقة :
— معاك . . لكن قاسم يقبل المناقشة . سؤال . هو يصلح زوج واللا ما يصلحش .
ويردون جميعا فى انتصار : ما يصلحش .
ويقاوم عزيز: على اساس ايه بتقولوا كده .
ويقول صلاح بصبر نافد ، ولكنه يحاول التمسك بسمعته كمحام :
— على اساس نقص فى تكوينه ، زيه زى الأعرج والأعمى والأطرش .
وبعد صراع طويل وعزيز وحده ضدهم . . يقول .
— انتم مفيش امل للتفاهم معاكم ، لانكم ما تعرفوش حديث القلوب وقيمة المشاعر والاحاسيس فى حياة البشر .
ويتركهم وتنهض فردوس وهى مودعة بالسخط والغضب .
فى ايام الطفولة . ايام المحبة والصداقة والحرية ، كانت تبحث عنى وكان اخوها صلاح يمنعها ، حتى عزيز كان ايضا يمنعها ، لكنها تبحث عنى وتفتش فى اهتمام على ، حتى تجدنى .
ونجرى ونجرى حتى التوتة عند المدرسة القديمة .

علمتها كيف تطلع الشجرة كى تاكل التوت والجميز ، لكنها فى كل مرة كانت تقول :

— اطلع انت التوتة ، وانا ح افرش الشوال ، ولما تهز الفرع ينزل التوت فى الشوال .

واقول لها ، وكنت يومها انطق :

— تعالى معايا هنا فوق .

— لا . . اخاف لاقع .

— ح امسكك .

— لا يا خويا .

وحتى اثبت لها انى جدع وشجاع ، اقفز من فوق الشجرة إلى الأرض فجاة ، فتجدنى اجلس إلى جوارها . . فتضحك فى استهزاء وتقول :

— ايه يعنى . . دى سهلة ، لو شاطر بص فى عين الشمس .

كنت ابحلق لها فى عين الشمس ، كى ابدو فى عينها بطلا ، فتظل تتبعنى ولا تنحل ابدا عقدة صداقتنا .

بعد ان كبرنا ، كنت اطلع الجميزة عند راس غيطنا ومعى المطواه ، اشق بها جانبا من ثمرة الجميز الخضراء ، اشق نحو عشرين جميزة او يزيد وهى ما تزال فى الفرع .

واجىء فى اليوم التالى واصعد الشجرة ، فاجد الجميزات المشقوقة قد فتحت فمها ، وتشكلت لها شفتان حمراوان من رحيق النحل . . اقطع واكل حتى اشبع ، ثم احمل لفردوس ملء « سيالتى » إلى ان تاتى عند العصر فاعطيها وتاكل وتبدو السعادة فى عينيها وتنتقل إلى عينى وقلبى .

احضر لها النبق والجميز والتين وكل ما اعرف انها تحبه ، واتلذذ انا بفرحتها ، وافخر انى صانع بسمتها .

لكنها اليوم حائرة .

ايكون حبى خطيئة كبرى إلى هذه الدرجة حتى يقلقها ويشغل بالها ، ويحرمها لذة النوم ، بل واحيانا ما يصدها عنى . . الانى اخرس . . لا انطق ليتها تكشف .

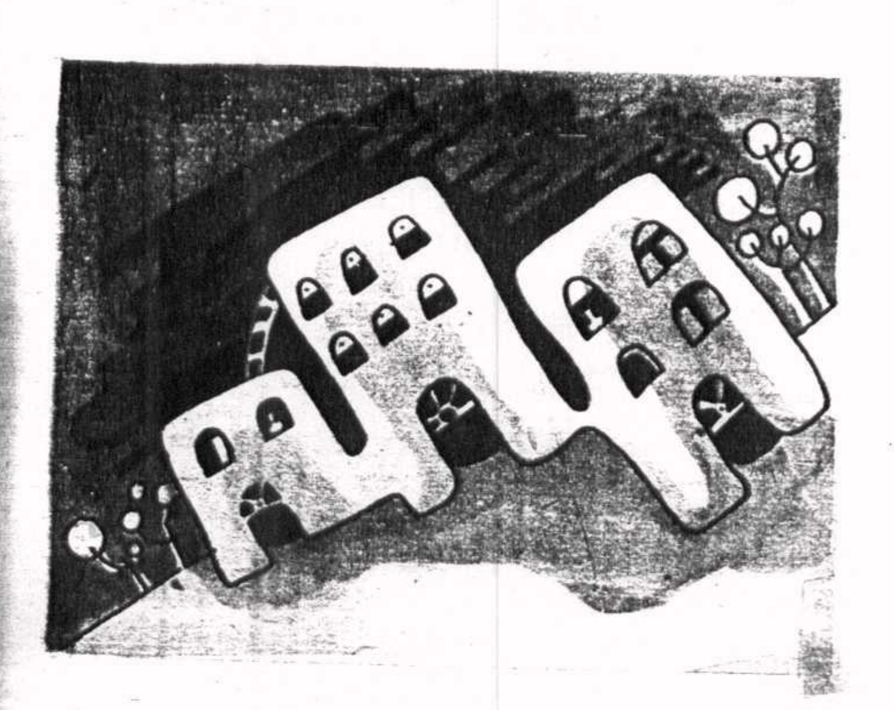
ويا ليتك يا رب تلهمنى النطق ولو ساعة ، لاشرح لها حقيقة مشاعرى . . انبهها إلى ان حبى قوة لها وليس ضعفا ، ان حبى لها من الصدق بحيث لا يجب ان تندم اذا هى مدت إلى يدها .

لا تلومي نفسك يا حبيبتي اذا اوقعت الظروف قلبك في حبي فحبنا قدر . .
مكتوب عليك لا تحاولي الافلات منه .
مهلا . . مهلا يا قلب ويا نفس .
الا اكون مبالغا اذ اطالبها بحبي ، وبالزواج مني .
اليس للافكار السائدة بين الناس اعتبار واحترام .
وهل تجوز الثورة على اعتقاداتنا ببساطة ودون تمهيد . لغرض شخصي
حتى ولو كان شريفا .
هل تجاوزت حدودي فيما ابغيه منها ؟ . ربما اكون كذلك دون ان ادري . .
فمعظم مشاكل قريتنا بالذات سببها تجاوز الحدود .
تجاوز الحدود حتى في الاستماع إلى حديث خاص بين اثنين ، والنظر إلى
مالا يخصك والتفكير فيما لم يطلب اليك والتفكير فيه من شئون غيرك . كثيرة
كثيرة . . الانسان في بلدنا مرتاح غاية الراحة وسعيد غاية السعادة ما دام
الكل بعيدين عنه ، وافضل ما يوصف به انسان في بلدنا ان يقال عنه :
— انه كافي خيره شره .
فهل اعاود النظر إلى نفسي ، فربما يتغير فكري واستطيع ان افهم سر حيرة
فردوس وقلقها .
ربما كانت اعادة اكتشافي لنفسي هي مفتاح شفائي . . شفائنا جميعا .
إلى من اتوجه بالامي وحيرتي .
للاسف . لا يوجد من اتوجه اليه غيري ، على ان الوك حيرتي وصبري ،
واجترها بين الحين والحين . افترض لها الفروض واتوقع لها النهايات
والنتائج .
وربما تنقذني الاحلام من جهد فكري وتطلع على كل عدة ايام بالحل
وبالمشورة ، وكل ما تعرضه علي يرضيني إلى حد كبير .
احب احلامي وهي تحبني . . تواتيني بما يشبه الانتظام .
اجد نفسي فيها فارسا مجتلحا . اتكلم واثور ، اعبر واشرح . اصحح للناس
اخطاءهم ، استمع إلى الناس ويستمعون إلى ، يفهمون عني ، ويعجبون
بعباراتي وارائي .
عرضوا علي في احد الاحلام ان اكون العمدة ، فرفضت . . الحوا قائلين
بانهم سيكتبون عريضة إلى مدير الامن بخلع العمدة الحال وتنصيبي مكانه .
لكنني لا احب ان يتعرض احد للاذى بسببي .

تصوير تراكبي

احلامى عالم آخر غير هذا العالم الماثل امامى كحيوان غريب الشكل ، راسه فى مؤخرته وقرونه فى بطنه ، وضروعه فى راسه ، وحوافره على ظهره . احلامى كون متوازن ومعقول تماما ، وعلى الرغم من اننى ابدو فيها ثائرا وهائجا ، الا انها افضل بكثير من هذا العالم الدميم ، الذى يمتلىء بالأورام . قرية احلامى جد مختلفة ، أعرف فيها معنى الابتسام من القلب ، والفرح ملء الروح ، والرضا ملء النفس . . اما هذه القرية اللعينة فانها تتبدى امامى كسمكة ملقاة على الشاطىء منذ ايام ، ككلب دهمته سيارة وارتمى على الطريق . محطم الراس . متفجر البطن . يعيث فيه العفن .

• • •



(٥)

في أحد الأيام كانت فى الغيط معى نلعب « السيجة » ونتحدث . . مضى الوقت سريعا ، وبعد أذان المغرب بقليل استأذنت فى الانصراف ورجوتها ان تتريث لدقائق ، حتى أخبر عبد السلام المزارع بأمر ما ، وأرتدى جلبابى واصحبها لكنها قالت : لا . . خليك انت . . نفسى اتمشى شوية لوحدى . .

لست ادرى ما الذى دفعنى للاسراع بارتداء جلبابى واللحاق بها ، عند الترعة التى تحاذى الطريق الرئيسى المفضى إلى محطة القطار وطريق المدينة . . كان من المفروض ان تتجه إلى اليسار لتدخل القرية ، لكنها اتجهت يمينا . . اى فى الطريق المؤدى إلى خارج القرية . . دهشت . زادت رغبتى فى تتبعها .

حرصت على إبقاء مسافة بينى وبينها . . حرصت ايضا على ألا أسير فى الطريق مباشرة ، ولكنى بقيت على الجانب الآخر من الترعة ، اى وسط الحقول والأشجار الكثيفة ، حتى اتمكن من رؤيتها دون ان ترانى ، وما هى إلا خطوات ، حتى ظهر شبح من وراء المدرسة القديمة المتهدمة ، وسلم عليها . . سارا معا . . دق قلبى .

دنوت إلى اقرب مسافة ممكنة . يوسف ابن العمدة . . عرتنى الرجفة . . احسست ان سكينا شق صدرى . . تيبست اعضائى . . وتخشب جسدى . ظلت عيناى مفتوحتين دون ان ارى شيئا . .

هل تعرف فردوس ذلك الوغد . . هذا « الوطواط » وإذا لم تكن تعرفه فلماذا تسير معه فى هذا الوقت ؟ . . ولهذا قالت لى انها تود العودة وحدها . .

اكلت اسنانى بعضها . ضربت بقبضتى اليمنى كفى اليسرى . . تذكرتهما فجاة . . اسرعت الحق بهما . .

تحاشيت ان ادوس على الحطب او على اوراق الشجر الجافة ، حتى لا يسمع لى صوت . . حتى جلبابى اطبقت عليه اسنانى ، حتى لا يحتك بقدمى اللتين تتفجر فى عروقهما الدماء . .

وضع يوسف يده على كتفها . . آه . . إذن ليست مجرد معرفة . . إنه الحـ . . حـ . لا . . لا . . ليس مع هذا الأفاق ابن الأفاق ، حفيد الأفاقين . .

يوسف الوطواط سليل عائلة كاملة تحكم البلد من عهد آدم ، بالحيلة والسرقة والنهب والكذب ، ورشوة المسئولين من رجال الداخلية ، كى تمر الأمور كما يريدون . . .

يا خبر اسود يا ولاد . . ليس هذا يا فردوس . . لقد فشل فى المدارس الثانوية ، ومضى يعيث فى الأرض ، يبذر فساده الموروث . . يوم فى مصر . . ويوم فى بنها . . ويومين فى البلد . حكاياته فى إغواء البنات معروفة للجميع ، لانه يحكيها بنفسه . . قادر وفاجر . .

حرام عليك يا فردوس . . ماذا اعجبك فى هذا الوطواط . . ربما جريه بالمهرة وهو يدوس فى سكته الفراخ والوز والعيال والزرع . . وما من معترض . .

— ليه يا خوانا ما بتنطقوش

— حلها يا سيدى معروف

— ح تشكيه لمين ؟ . . لابوه ! ابوه ح يحطك فى دماغه

— ولو حطك فى دماغه ، مش ح يهنيك على زرعة ، ولا ح تخلص لك مصلحة . . بالعربى ما تشتكيش ولا تعترض . . ابن الحاكم وللا اخوه حكام اكتر من الحكام . .

— وحتى لو مش قريبه يكفى انه يكون كبير وله مقام . . الكبار ح يراعوا خاطر بعض ويساندوا بعض ضد الغلابة .

— يعنى اللى يرميهولك خده

— بقرة عميا يعنى

— بقرة عميا وتعيش ، احسن من بقرة مفتحة وتندبح

حرام عليك يا فردوس ، بلاش الناس دول ، دى سكتهم أصعب حتى من سكة ابوك ، وابوك نفسه ذراع ابوه اليمين . .

يا خبر اسود

ــ وتلفين ذراعك حول وسطه ، ويمسح لك شعرك ، ويحط راسك على كتفه ، وفى الشارع .. عند الكوبرى وامام الرائح والغادى ..

اخشى ان يراكما احد .. الم تفكرى حتى فى حبى لك .. فى اهتمامى بك .. فى املى فيك .. فى طفولتنا .. الم يتحرك بداخلك اى سؤال عنى .. الم تفكرى فى اى شىء ؟

ماذا جرى للدنيا ؟ هل عميت الناس ! .. هل اصبحوا مجرد آلات ، ذوات السنة تتكلم فقط ، والعقول ذهبت .. تلاشت ...

جلسا على جدار الكوبرى يتحدثان فى همس ، وانا ارقبهما . لن اتخلى عن مكانى . لن اتخلى عنها ولن اتركها له ..

رابضا انا مكتوم الانفاس خلف شجرة ضخمة .

يمسك يدها ويعبث بها . يحتضن وجهها بيديه ، يقترب من شفتيها . آه .. هل سيلثمها فم الثعبان ؟ .. هل ستمتد شفتاه إلى شفتى الطهر والنقاء ..

ابتعدت فردوس فى هدوء . احسنت يا فردوس . عظيمة جدا يا فردوس .. حاول معها مرة ومرة ، لكنها ابت . عظيمة يا فردوس . قلبى يتابعهما ويدق بشدة ، كانى ارقب عملية جراحية لأعز الناس لدى وهو بين الحياة والموت ..

نهضا . دارا فى اتجاه القرية . بقيت فى مكمنى . يده على كتفها ، ويدها حول خصره .. تبعتهما عائدا ..

انفصلا قبل اول دار بالقرية . سرت خلفها . فكرت ان ادنو منها ، لتحس بانى رايتها .. لكن نفسى عافت هذا الموقف . بلغت دارى ورفضت بشدة دعوة امى للعشاء ..

قبعت فى الفراش . استسلمت تماما للافكار . طلبت إليها أن تفعل بى ما تشاء . ذهبت بى مذاهب شتى ، وانا ساهر احرس الليل . وارتعش كان بى حمى ..

لكنها شراسة القلق الذى يعصف بالنفس ، وضراوة الأفكار السود التى ترتع فى روحى . تخنقنى ..

تساءلت : ما هذه الحياة الملطخة بالطين ؟

يا رب يا صاحب الخيمة الزرقاء

إن سماءك بعيدة عنا . فهل نظل نعتمد عليها ، ام نترك انفسنا لانفسنا . .
ابدا لن نترك انفسنا لانفسنا ، فما اظلم انفسنا واعماها . . سيظل يحدونا الأمل فى الله وفى سمائه الحانية . . سيظل الأمل يواكب مسيرتنا وسيهدينا يوما إن شاء الله . .

إنه قدرنا . . ومكتوب ان نتالم ولا فكاك من ذلك . .

ألم يقل الله تعالى « لقد خلقنا الانسان فى كبد »
تلك الآية التى سمعتها وحفظتها فى كتاب الشيخ حنفى ، وكنت ارددها عشرات المرات دون ان ادرك لها معنى . حتى فسرته لى خالتى فوزية لابد من المعاناة

لقد أوضحت لنا يا ربى كل شىء فى كتابك الذى انزلته على نبيك الكريم محمد ، ولكن اتظن ان باستطاعته ان يساعدنا على تحمل هذه الآلام المتواصلة . كلا . . فأرجوك ان تتدخل يا إلهى بشكل حاسم وجلى . لقد تغلغل الألم فى كل شىء ، مدعيا ان له فى حياتنا حقوقا . . وها هو قد نال اكثر ما ينبغى له . يا رب اخشى ان اتيقن مع الأيام ان الحزن خالد . .

لم استطع ان اتحمل محاصرة القلق لى وتغلبه على نفسى . خرجت من الدار . . قفز « شهم » خلفى . . انحنيت عليه وقبلته ، نظرت فى عينيه ونظر فى عينى ، كأنه يسالنى . . ما بك . . لماذا لا تنام ؟
فكرت فيه . دار بخلدى لحظة اننى حينما اراه ، كانى انظر فى مرآة . . ما الفرق بينى وبينه . ؟ . . هو انا وانا هو . . يحس بكل شىء لكنه ابكم
طلبت إليه ان يبقى فى الدار . .

●●●

سرت فى ظلام القرية . تنعشنى نسائم ندية طرية جديدة . وفدت من المزارع بعد ان هجع الجميع .
مضيت انتقل من الظلام إلى الظلام . . الليل ممتد حولى . فوقى وتحتى كحيوان اسطورى ضخم جثم على القرية ، الجرن الكبير القريب من دوار العمدة . ساحة رحبة كالميدان . يتدلى « كلوب » العمدة من عموده الخشبى ، يدفع عن الساحة سحابات الظلام التى وقفت بعيدا لا تريم . .

ـ ٥ ـ

وقفت وحدى ارنو وابحلق فيما امامى . لا احد معى . لا احد إلى جانبى . يتيما اتسول كلمة عطف . .

رحلت الدنيا جميعها وتركتنى . لم تبق لى إلا ما تكره . الصمت والوحدة وبعض المعالم الباهتة والأطلال . نورج قديم . نخلة محروقة . اكوام سباخ . بعض الكلاب التى أسكرتها النسمات بعد عشاء ثقيل من فضلات العمدة . .

المكان يبدو كانه شهد هنا قرية منذ آلاف السنين . . زالت وبادت وانقرض أهلوها . الفراغ من حولى أخرس . .

الكلاب ممددة لا تعبأ بى . .

يستطيع العمدة ان يخدر الجميع ، فيستسلمون له ولأعوانه حتى الكلاب . نامت الكلاب فى دعة . كى لا تنبح فتنبه أحدا إلى السارق أو الغاصب أو القاتل .

فليفعل الجميع ما يشاؤون ، وليصرخوا كما يودون فلا مجيب ، لا صوت هناك ولا حركة . لقد رحلت القرية . ورحلت فردوس معهم . . ركبت مركب الخديعة والزيف ، ضمتها اجنحتهم الفضفاضة التى تكنس الأرض . . تأخذ الكل وتأخذ من الكل . .

لم يكن لى غيرها . كنت اتعلق بها تعلقى بالحياة . مضت . مضت ولم يعد يربطنى بالحياة رابط . . هل ارحل انا ايضا من هذا البلد ؟ . . فإلى أين أذهب ؟ إلى أى بلد آخر ؟ . . وهل سيكون الآخرون ارحم بى من اهل بلدى . سيهرب الجميع منى ويرحلون عنى ، كأنى الطاعون يحمل المرض والموت . . سبب المشكلة اننى تجاوزت حدودى وحلمت . . يبدو انه ليس من حقى أن أحلم . . الكل يحلم فلماذا لا أحلم !

ما اكثر احلام البشر ، وما ابعدها عن إمكانية التحقيق . .

لقد أسرفت فى احلامى واسرفت حتى أصبحت مواجهة الحقيقة الآن مسألة فى غاية الصعوبة ، فمن الذى سيساعدنى فى تخفيف مصيبتى . . وانا وحدى كالشجرة العجفاء وسط الصحراء . .

هل أخبىء راسى فى الرمال حتى تمر الأزمة وتسوى الأيام عالى الظروف وسافلها . لن يتاح لى حتى الآن الاختباء . .

لن يتاح لك ما تريد . عجيب أمر الدنيا . إذا حاولت التقدم ضاق بك الناس . وإذا حاولت التوقف ضقت بنفسك . وإذا حاولت الظهور قاوموك ، وإذا حاولت الاختباء داهمتك الأوهام وساورك القلق وربما لحق بك العجز . .

مناجاة ألم

لا يوجد من يفرض ـ عن قصد ـ إرادته عليك ، ولكننا مع ذلك لا نحقق ما نريد ، ولا نصل إلى ما نبتغى رغم سعينا الحثيث إليه . .

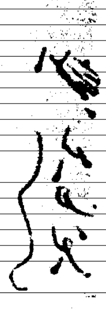
إنك يا رب الذى تسير كل شىء ، فهانذا اقبل مشيئتك ، ولا يبقى لى إلا أن اطلب منك ان تمكننى من الصبر ، وتعيننى على تحمل ألامى التى تكاد تتفرد وحدها . .

ها هى المزروعات تهتز على انفاس الريح ، وانا لا استطيع التقاط انفاسى . .

قررت ان اعود . صفعات البرد قاسية . .

اغمض عينيك يا نفسى المسكينة وعودى إلى مقرك . إهدئى . طامنى من غلوائك . اسوا الاغراء ما تبحثين عنه وتقتفين أثره . بل انه قمة العار لأنه ليس لك .

● ● ●



(٦)

مرت عدة أيام حاولت خلالها ألا ألتقى بفردوس ، لأن اللقاء سيكون غاية فى الحساسية . توقعت أن تكشفنى عيونى وملامحى ، وإن لم يعبر لسانى . سوف تعرف كل شىء ، إذا هى نظرت فى عينى لحظة أو لمست يدى لمسة .

وجدت نفسى بعد مرور هذه الأيام ، أشعر تجاهها بشعور آخر ، فقد تسرب إلى رأسى اعتقاد بأن قلب فردوس وقع تحت سيطرة مؤثرات قوية وفعالة ، تغلبت عليه وخطفته فاستسلمت ، وقلب الإنسان ليس بيده والتحكم فيه ليس من سلطته تماما . .

لم أشك فى أن الله هو الذى أوعز إلى هذا الاعتقاد ، حتى يتسرب إلى نفسى ، ويريحنى من حمل أعباء القلب الغاضب ، والنفس الثائرة ، وهى مسئولية جسيمة .

بدأت أدرك بالفعل أن رعاية الله بلغتنى بشكل خفى وسرى ، وفى صورة غيبية بسيطة . نفذت إلى الروح فى هدوء ، فوزعت بشرها وبهجتها ، وأشاعت فى النفس السكينة ، فمكنتنى من التفكير الرائق المتزن فى غير ثورة أو انفعال .

إنها هى رعاية الله التى تلجأ إلى أسلوب روحى ، هو بمثابة الجو المناسب للتفكير السليم الهادىء المفيد ، ولا تلجأ إلى أسلوب مادى فى صورة رزق مفاجىء أو ثروة غير عادية تهبط من السماء لتحل المشكلة . .

أعجبنى هذا الأسلوب الربانى الطبيعى فهدأت وسكنت وحمدت الله

لكن هدوئى المؤقت الذى استشعر انه قضى تماما على ما بالنفس من شجن ، لم يقض تماما على امراض الشعور ، ولم يخلص القلب من شحنته المتاججة ، ولكنه نور تفجر فى قلبى يطالبنى بالتريث والتفكير المتانى لتحديد الخطوة التالية . .

بدأ التفكير في أمي ابتداء من مقتوا المحبوبة

●●●

ركنت إلى العمل ابنه ثورة نفسى التى تحولت إلى ثورة جسد ، ورغبة فى الجرى والعرق وحمل الاثقال وقطع الشجرات الشامخة . .

لكننى لم استطع ان ارد عنى هاجسا يحوم كالنحلة لكزن فى راسى . .

هذه هى الدنيا ابها الاخرس اليتيم المنفى المحتقر . .

هذه هى الدنيا ابتها الرائحة العفنة التى لا يرغب فى شمها احد . .

وتذكرت امى ذلك الحنان الخالص . .

حلمت بها . حدثنها . حدثتنى . بسطت امامها ايامى . وبسطت امامى ايامها . اهتمامها بى حضنها الدافىء . كلماتها الرقيقة . نظراتها الحانية ، مباهاتها بجمالى وذكائى مساعدتى إياها عندما تستاجر حمارة هنداوى لتحمل عليها الذرة لطحنه فى ملكية بلتان . .

ما احوجنا إلى الحب . . حين افتقدت فردوس بحثت عن امى . . طافت بخيالى ، وشاركتنى لقمتى وعملى ووحدتى . . لماذا ذهبت يا امى وانت فى ريعان الصبا .

تجارب الأحرار

هل من كان مثلها يذهب !

حقا إنه لا يبقى على المداود إلا شر البقر ، ويقولون مكروه الدار سلكنها . . تذهب هى ويبقى عمى وزوجته حفيظة والعمدة وابنه ، والشياطين الحمر اولاد ابليس الذين يختبئون فى خص ولعة . .

شىء غريب

إننا نرى الماضى بافضل مما نرى الحاضر . بل إننا نرى الماضى البعيد افضل من الماضى القريب . ومن الغريب اننا دائما نرى الماضى أجمل ، لكن مهما بلغت وقاحة الحاضر وسخافته فهو الأجدر باهتمامنا وتاملنا وفعلنا . .

تداعى إلى ذاكرتى ما قيل عن خص ولعة فى السنوات الأخيرة . .



قال لى الأستاذ شكرى مرة ، إن خص ولعة هو الذى دفع بابى كى يحرق امى . واحترقت أمى . الصبا والحنان والشرف . .

ودخل ابى السجن ، وذهب إليه الكثيرون يقسمون على ان ام قاسم اشرف ام واطيب ست واطهر زوجة . .

لكن ماذا افاد إيمانهم ؟ وماذا فعلت شهادتهم !

هل اعادت امى للحياة ! . . هل اخرجت ابى المسكين من سجنه وهل اعادت النطق للأخرس اليتيم !

●●●

فى السجن نحر الغيظ ابى وليس لديه سبيل ، تاكلت نفسه وتعذب لأنه كان يحب زوجته ، وكان مطمئنا إلى شرفها ونبلها . .

لم تتحمل اعصابه الثائرة كلمة تخدش سيرتها وكرامته التى يعيش بها .

وهو الذى قال إن الانسان مجرد كرامة وإذا ضاعت كرامته يبحث عن قبره . .

ولما حاول هو البحث عن كرامته بالهروب من السجن للانتقام وفشل . مات

لماذا كانت نهايتهما على هذا النحو ، وكانت بدايتى اسوأ من نهايتهما !

نسيتهما اعواما وهانذا اعود إليهما . .

كان ابى شخصية غريبة ، احاول جاهدا ان اذكر دخوله وخروجه ، سمته . صراخه وصمته . كرمه وعزة نفسه . جثته الضخمة ، وذراعيه المفتولتين كساق شجرة عريقة ، اصلها يمتد فى الأرض راسخة فكم رفع بهما وكم حمل من احمال . .

مسكينة امى

اذكر فى صور ضبابية ذلك اليوم

عندما جرى وراءها ، وادركت انه يحمل فى صدره شرا محققا وغضبا اشد من غضب الثور ، دخلت مخزن التبن ، لا شىء إلا لأن بابه متين ومزلاجه قوى وجدرانه سليمة ، وقد حاول ابى مع الباب ، فدفعه بكتفه عدة مرات ، لكنه استعصى ، ولم ينفد رصيد الشر فى صدره ، بل زاد حنقه على امى وعلى الباب ، سحب عود الحطب المشتعل فى « الكانون »

هل كان ابى مجنونا ؟ . . وهل كانت امى سيئة السمعة . .

كانت جميلة . كان وجهها بدرا فى تمامه ، تحيط به طرحتها السوداء ، تزيدها بهاء . وكانت محتشمة ، طاهرة الذيل . . أمى .

لعن الله ألسنتهم . . فما كان العار بثوبها أبدا ، لكنه كان دائما فى ألسنة الفجرة الذين يختلقون الحكايات للتسلية والسهر ، والغريب أنهم لا يتورعون عن قص هذه الحكايات أمامى ، لأنى مجرد أخرس ، والأخرس فى رأيهم حيوان .

إنهم لا يفكرون على الاطلاق . . ومع ذلك فحالهم افضل منى . . فهم يفكرون ولهم ألسنة ، وأنا أفكر بلا لسان . .

انت تفكر ولديك القدرة على أن تطلق سراح افكارك كالحمام الأبيض يغادر البرج ويهيم فى الفضاء ليستقر أنى يشاء . .

أما أنا فحمامى داخل برجى ، لا يطير . وأنا مجرد برج يستقر على الأرض . وينظر للناس فى بلاهة ، وترنو إليه الناس فى احتقار أو على الأقل بلا مبالاة . أنا برج كله عيون ، ولكن حمامه بلا اجنحة .





دخل عبد السلام المزارع الذى يعمل فى ارضنا وقال :

— تصوروا الشيخ ابراهيم . . سموا بهايمه

ردت أمى ترك باندفاع ودهشة :

— سموها !

اما انا فقد وقفت اللقمة فى حلقى ، وازدردتها بصعوبة . . انتبهت لعبده وهو يقول مؤكدا :

— الراجل الطيب . . سموا بهايمه

— اللى شاغل نفسه بمشاكل الناس

— سموا بهايمه

— ويبقى مين اللى عملها

— ح يكون مين . لابد حد من عند ولعة

تضايقت لانى ارتاح لمجرد ذكر اسم ولعة ، وارفض فى اعماقى ، فكرة ان تكون هى أو أحد تعرفه ، قد ارتكب مثل هذه الجريمة . .

اشرت لهم بالنفى

— امال يبقى مين . . لازم يكون هما . دى شغلتهم . اكل عيشهم . .

إقشعر جسدى من فكرة أن يكون اكل عيش إنسان من قتل إنسان آخر أو إضراره .

قال عبد السلام : قصدك يعنى . حد يكون وزهم

وافقت بإيماءة

سأل عبد السلام نفسه : يكون مين يا عبد السلام . . يكون مين يا واد يا عبده

قالت أمي ترك :

— ما يكونش حد من عيلة المرحوم البطاوى

صحت موافقا . . فاندفع عبد السلام

— اما انا حمار بشكل

وافقته بسرعة . . قال :

— ايوه صحيح هو لازم احمد البطاوى ، علشان هوه راكب على ارض المرحوم اخوه سيد ومش عايز يديها لمراته وعياله ولا بيديهم حتى اللى مكفيهم . .

— وكان الشيخ ابراهيم بيجرى لها فى قضية بعد ما تعب معاه محايلة . .

بدات افكر فى هذه السن فى مسالة الشر المنتشر فى الارض . . هالنى حجم الشر المسيطر على الكون .

لماذا نسمع كل يوم وبلا انقطاع عن فلان الذى قتل ، وعن بهيمة فلان التى سرقت او سُمت ، وفلان الذى ضرب زوجته وطردها ثم طلقها . . والأب الذى يخنق وليده ، والأم التى تكوى ابنتها ، والولد الذى يذبح اباه . .

ما كل هذا الشر

دفعنى هذا لمزيد من القراءة ، تلك العادة التى كانت تلازمنى مذ دخلت المدرسة . .

احافظ عليها واحترمها واحس معها بالراحة وفيها بالأمل . .

فى القراءة احس انى اتحدث إلى الكتاب وأن الكتاب يتحدث إلى ، ولا يبخل على بشىء ، ولا يحتقرنى ، بل يمنحنى علمه وصمته وحبه واهتمامه ، وينتظرنى بلهفة . ويلقانى مرحبا فاتحا صدره . كاشفا كل اسراره . .

زاد نهمى للقراءة وحبى لها وغوصى فيها بعد انصراف فردوس عنى . كنت اقرأ واذهل عن المأكل والمشرب ثم اتامل الكون من حولى وافكر فى الشر . .

هدانى تفكيرى إلى ان اكثر الوان الشر تتشرنق وتتجهز فى اوكار خاصة بها ، أوكار دافئة يضمها الليل والشراب والسمر . .

إلى هناك يذهب رجال ضائعون لاسباب فى نفوسهم ، يعلمونها احيانا وفى أغلب الأحيان لا يعلمونها . .

فالتائه الحائر الذى يبحث عن شىء ما لا يعرفه ، وتتسكع ايامه بشكل أو باخر ، تحمله قدماه إلى وكر من هذه الأوكار . . غرزة فى مخزن او خرابة



ركن سرى فى قهوة معتمة . سرداب فى بيت مدخله باب صغير تحت السلالم . كوخ فى آخر حدود القرية . خص فى غيط بعيد انينة . .

لاحظت ايضا ان العمدة عندما يبلغه نبأ حادث ما ، يستدعى - حتى وهو نائم - اسماء معينة يضمهم خص ولعة فى اول البلد قبل كوبرى الرشاح . .

وغالبا ما يكشف التحقيق عن ان مرتكب الجريمة هو بالفعل من رواد الخص او اتباعه . .

كنت قد سمعت ان احدهم هو الذى قال لابى ان امى احتضنها ابو سريع الشمام ، شاع ذلك الخبر بين الناس فترة ، حتى ان عمى شيخ البلد سأل ابو سريع سرا عن حقيقة الحكاية والرواية ، ، فحلف له على الختمة ، بان شيئا من ذلك لم يحدث . . كل ما هنالك انها طلبت منه شمامة ، فقال لها ابو سريع :

— عايزة الشمامة ببلاش

— لا . . بفلوس

— مش عايز فلوس

— امال عايز ايه . . ما عنديش حاجة اديهالك

— عايز بوسة

طظ فيك وفى شمامك ، يا شمام يا ابن الشمام

ولما هم بالتقدم منها ، غرفت من طين ، الفحل ، و ، لطشته ، فى وشه واسرعت بالجرى ، فعدا فى إثرها ، لكنه لمح رجالا يعبرون الترعة فتوقف واكتفى بسبها .

— يلا يا حرامية . . عايزة تاكلى ببلاش

اذكر حوارا او شبه حوار دار بينى وبين امى حول موضوع ، الشمام ، وكان قبل طهورى بايام

قلت لها لما رايت الشمام فى يد الأولاد :

— نفسى فى الشمام يام

— حاضر يا حبيبى . النهاردة يكون عندك الشمام

والتقطت طرحتها ، واسرعت خارجة ، وبعد فترة عادت تقول :

— طول بالك يا قاسم . . انا لقيته لسه مُر

مُر جدا يا امى ومرارته تزيد يوما بعد يوم ، فلماذا رحلت . . فلماذا رحلت . كان يمكن ان تقولى شيئا ما . .

قطعوا شجرتك يا امى وقطعوا لسانى ، انقطع لسانهم وانقطعت شجرتهم .

قررت أن اذهب إلى الخص ، لأعلم بالتحديد من هو الذى قال لأبى حكاية ابو سريع ، ومؤكد انه اضاف إليها ما دفع ابى إلى ان يفعل ما فعل . .

سمعت عن ولعة . . احببتها قبل أن أراها . اعجبنى ما سمعته عنها . رجولتها وصدقها وغرامها بالشهامة ، تحمست للذهاب إليها بعد ان حكى لى عزيز عن انها كانت تحب ابى رغم فقره . .

دخلت الخص ومعى عصاتى الغليظة التى لا تفارقنى . وبقى شهم بالخارج . . رأيت شلة ملتفة فى دائرة غير منتظمة تلعب الورق فى حماس . فاجانى صوت أحد الحاضرين :

— الله . . ايه اللى حدفك علينا يا اخرس

ابتسمت . . لم أكن أملك غير الإبتسامة البلهاء

— وانت دايما من غيطك لبيتك

فى حياء وتخاذل جلست بالقرب منهم . امتدت ايديهم ناحيتى بأعواد الغاب

— طب خش كده وانت حامى على دور البورى ده .

اقشعر بدنى كأنهم يقدمون لى ثعبانا . ضممت اكتافى تقززا . . اشرت باصبعى رافضا .

اندفع غيره كان يواجهنى ظهره

— يبقى انت غريب

— والغريب ما يقعدش معانا

اشرت إليهم بما يعنى اننى منهم . . فهم احدهم (العسيلى) إشارتى . . فقال وهو يدس الجوزة فى فمى

— يبقى تدوق طبخنا

اين اذهب وماذا افعل او اقول ؟ . . الجوزة فى فمى ، وبدونها اظل غريبا ، وبها أصبح منهم . . اعرف كل شىء عنهم ؟ يقبلوننى جليسا وانيسا ، وانا أريد أن اعرف كل شىء من القاع . . وخص ولعة هو القاع وهو القمة . .

ابتلعت النار . نفثت الدخان . اهتز راسى وتجوفت جمجمتى . ودارت الدنيا وانقلب الخص لحظة . اعتدل الخص . . وجدت امامهم بعض القثاء . اكلت لأغير الطعم واطفىء النار . .

فجاة جاء دورى مرة أخرى . ابتلعت النار ونفثت الدخان . انقلب الخص واعتدل . .

لحظة اخرى او لحظات فوجئت بالدور يصلنى ويطالبنى ويلح :

— مساء الهنا

رفضت بشدة وهم يقهقهون وانا اكاد لا اسمع .

زعق زينهم

— لسه نواعم . . يا ولعة . . الولعة

من غرفة طينية داخلية خلف الخص ، قدمت ولعة تتدحرج فى جلباب رجالى ، ضيق قليلا ، تلبس جوربا فوقه صندل ، فوق راسها منديل مدندش بالترتر الملون

برغم ثيابها الرجالى ، فقد بدا انها طرية تغرى بالعناق . . بالجسد تشدك ، وبالعين تصدك ، ثم تفرقع ضحكتها فى الفضاء المفعم بالدخان ، فتردك إليها مرة أخرى . تنهض لتسعى نحوها ، تفلت متجهة إلى منصة النار وتتركك لتسقط . تسقط فى النار . .

راتنى . . قالت بانشراح :

— مين . . قاسم . . اهلا قاسم

وقفت لها . ابتسمت . سلمت . ادهشنى استقبالها الحار . هل تستقبل الجميع بنفس الحرارة . .

— ابوك المرحوم عطية البنهاوى . . كان اجدع راجل

كح زينهم . . قالت فى إصرار :

— ايوه كان اجدع راجل

رمى زينهم ورق اللعب وهو يقول :

— إخص

لم العسيلى الورق من امام زينهم وهو يقول له :

— راحت عليك يا جميل . . الولد اتحرق

إنزعجب للحظة لدى سماعى العبارة الأخيرة . .

قالت ولعة :

— احسن مشروب عندى قرفة بالجنزبيل . . ايه رايك

اومات لها واقفا . اقعدتنى بيدها واستدارت عائدة

مضى الجميع يتحدثون

زينهم ، ضبة ، العسيلى ، حبشى ، ابو شريبة ، ومصيلحى .

فهمت بعض ما يتحدثون فيه ، ولم افهم البعض الآخر

إستطعت ان التقط بعض الخيوط ، عن أحداث تمت ولم تستطع الداخلية برجالها جميعا فى عموم المديرية ان يصلوا فيها للجناة

ذهلت من الخوف والرهبة ، وثقل العبء على صدرى ، إذ علمت ان من هذه الأحداث ما كان فظيعا وضاريا . فهل انا الآن بين وحوش فى الغابة !

امتد الوقت وانا قابع بينهم ، كانى راض بالجلسة فى الخص .

عيناى تراقبان ولعة ، واذناى فى افواه الوحوش ، تصيخ السمع لكل همس . .

مكثت رابضا فى مكمنى استزيد ، وكانى اعوض اياما مضت ، او اختزن لأيام قادمة

لم اجد وسيلة احفر بها قبر ابى بينهم ، كيف يمكننى النبش فى الذكريات القديمة لمعرفة ما جرى

وطنت نفسى على الصبر ، واقتنعت ان ذلك ربما يواتينى فى مستقبل الايام ، وأن الامر يحتاج زيادة وزيادة . .

سادت بينهم فترة صمت . قطعها احدهم بسؤاله :

— إلا شرفنطح مش باين بقاله مدة

قال مصيلحى :

— يعنى ح ييجى يسيب المحابيس

قال العسيلى : إسال على حاجة تستاهل

— طب ما هو شرفنطح يستاهل

— يستاهل علقة

— اهو اللى فيه كفاية

— الولية العمشة الغنية اللى اتجوزها

— تمشياه على العجين

— حاجة غريبة ، بقى المعص ده ، اللى ما حدش يرضى حتى يطفى فى وشه السيجارة ، تتجوزه الغنية دى

— الفلوس مش كل حاجة

— دلوقت بتقول كده

— مش كل حاجة مع المرة الوحشة . دى الحالة الوحيدة بس اللى تغور فيها الفلوس وصاحبتها . .

— جايبه له كل اللى عايزه وحطاه قدامها تتفرج على شكله . .

زواج شرفنطح من امرأة عمشة

— اصلها بتتفائل بيه
— اهو انكن شوية ، وصحته جت على عمشها
— بس شرفنطح من الناس اللى بيحبوا كار الجدعان ، ولو حتى يقعد يشم الريحة
— آه . . هو الود وده يفضل طول عمره داير فى الضلمة
ظهر فجاة رجل ضئيل الحجم ، يرتدى جلبابا ومعطفا صيفيا اصفر ، وطاقية مضلعة وفى يده عود زنزلخت
— بنمسى
— بيبه . . ياريتنا افتكرنا الف جنيه
— هيه سيبتك
— لا دا هوه ، إداها منوم وانسرق منها وجه
— قالوا انك مت
— طب ما هو آه
— وجيت ليه
— امشى فى جنازتى
— وشك ولا وش القمر
— وشى
— اشمعنى
— خدوه
— صبحية مباركة يا عريس
— عامل ايه ؟
— معذب
دنت ولعة وقدمت لى الجنزبيل . قالت عندما رات شرفنطح
— جيت يا عريس الغفلة
جلس شرفنطح وهو يقول لها :
— سمعت انهم طلقوكى
وقع بصره على فقال :
— الله . . هو انتم شوفتوا بدالى ولا ايه
— ليه
— امال الواد الأخرس ده هنا ليه

كدت القيه بكوب الجنزبيل ، لكنى تمالكت نفسى لجهلى بطبيعة الجالسين ولانى اود ان اعرف المزيد

قال العسيلى : ده لسه مشرف من شوية

— وايه اللى رماه

— اللى رماك

— ولعة

انبرت له ولعة

— انا تفيتك مش رميتك

قهقه الجميع ، ثم انشغلوا فى سحب الأنفاس .

من مجموع الأحاديث التى حفرتها فى ذهنى ، ادركت ان شرفنطح رجل يحب السخرية والضحك ، وإن بدا لى سخيفا .

عاد الحديث يتصاعد مع الابخرة والدخان

قال حبيش عنى :

— اول مرة اشوف اخرس وحليوة

قال زينهم :

— حلو لامه

قال شرفنطح :

— بس حمار لأبوه

هممت ان انقض عليه ، لكن ولعة سبقتنى إليه ودفعته بشدة فى كتفه :

— هو لسانك ده ح يفضل زفر مهما يحموك

قال زينهم :

— اصل ده يلزمه مية نار

ولعة : — معلهش الزمن يا ما بيعلم فى الناس

حبيش : الزمن ياولعة بينطق الحجر . واشمعنى ده لسه اخرس

ايقنت ان الجلسة حامية والكلمات النابية تبلغنى ، وحينما تبلغنى وتلسعنى نارها ولا يتعين ان اصمت ، او اقبع فى ركنى منكسرا لتفر من عينى الدموع .

وللأسف لن استطيع الرد على الكلام بالكلام ، لأنى لا املك غير الذراع والعصا

وماذا بعد المعركة ؟ . . لا شىء

قررت ان ابرح المكان . لكنى لا اسمح لنفسى ولا اقبل لها ان ارحل عنه كالكلب المدحور .

قضمت اسنانى ، وتنهدت وكان صدرى قد تحمل اكثر مما تعود ان يحتمل خلت ان الخص يدور والأرض تمتد وانا اهوى . . اهوى إلى قاع بعيد .

نهض مصيلحى فجاة وجذبنى من ذراعى وقال :

— دستوركم يا رجالة

— اله على فين يا مصيلحى

— كفاية كده

— النوم كبس

— طب ما تسيب لنا الأخرس نتونس بيه

— مرة ثانية

الله وحده هو الذى حمل مصيلحى على النهوض ، والذهاب بى بعيدا عن هذا الوكر الملعون . .

تلقتنى النسمات الرقيقة ،فاعادت لقلبى هدوءه وانتظامه . . ولانفاسى طريقها حتى بدات بعد لحظات استمتع بالمساء الهادىء والسكون الشاعرى اللطيف . .

قال مصيلحى :

— حاجى معاك لحد الدار

اشرت إليه موافقا ، كى اقدم له التحية دليل العرفان . .

مضينا و، شبهم ، يتبعنا ويدور من حولنا ، يسبقنا ويعود إلينا ، يجرى كالجواد الأصيل مرفوع الراس مستقيم الظهر لا يكاد يلمس الأرض . .

انست الطيبة فى مصيلحى .

سالته عن ولعة . . ما هى بالنسبة لهم ؟

اجابنى بانها لا تكاد تشترك معهم فيما يقومون به ، لكنها لا تستطيع ان تمنع نفسها من الاستماع ، فماذا بيدها ان تفعل ؟

مجرد سكة رزق حتى لو مع شياطين

قال مصيلحى ضمن كلامه جملة اتذكرها جيدا .

— الدنيا غلابة . . ياما بتلوى الدراع وتلف الدماغ وتغير السكك

مرة واحد منهم سالها :

— ايه رايك يا ولعة
— الراى رايكم . . انا مالى
— يعنى موافقة
— موافقة على ايه يا روح امك . . هو انا فاهمه حاجة
— وانت ام المفهومية وابو المفهومية
— لا ياخويا ، انا بقى هنا ضرة المفهومية . . انا ولعة وبس
— وهوه احنا عايزين اكتر من ولعة
— لو كنت اقدر امنعكم عن عمايلكم السودة كنت منعتكم ، ولو كنت اقدر اقفل بق واحد فيكم كنت قفلته . . لكن انتم بتفكروا وتدبروا ، وتخلصوا
— كل اللى بنعمله تار وبنخلصه
— أهى ابدان متسلطة على أبدان
— عليكى نور

. . . .

سالته بإشارتى عن صحة ما يقال من انها كانت تحب ابى
قال إنها بالفعل كانت تحبه ، ولكنه لم يكن يحس بهذا الحب ، لذلك تزوج بغيرها . .

كان شرف او كمايسمونه شرفنطح الذى جاء منذ قليل وهو مدمن افيون لدرجة الجنون يفهم كل ما يدور بالكو ، وكان يحس بمحاولاتها مع ابى ، وحين يلحظ ان ابى لم يلتفت إليها ، يردد مقطعا من اغنية مشهورة وقتها :

البنت عايزة الدلع . . بس الجدع شوال خالص

ويقهقه الذى يفهمه
وتقول ولعة لشرفنطح :
— إنكبس يا شوال
وكان شرفنطح يحب ولعة ، لكن ولعة لا تريده
فى إحدى المرات قال لها :
— ح نفضل نعذب فى روحنا لأمتى يا ولعة
— روح منين يا وله ؟
— انا وانت الحب باين فى عينينا ، وما بقتش قلوبنا قادرة تستحمل
— ال تروح فين يا صعلوك بين الملوك
— وهو اللى بتفكرى فيه بين الملوك

— سيد الملوك
— ده سنكوح . . حتة فواعل لا راح ولا جه . . يوم فى الطالع وعشرة فى النازل
— عاجبنى
— بس ده مركوب
— انت اللى مركوب
— قصدى مستعمل يعنى . . ومش ح تلاقى حد يحبك زيى
— بطل الماضة يا شرفنطح ودور على اللى تقدر عليه سنانك
— إنت على قد سنانى
— جرب وقرب
— اهو
— خد
ودقته على ام راسه فانحط فى مكانه كالجوال ، حين يسقط من فوق ظهر الدابة . .
بعد لحظات نطق وقال :
— عاملة نفسها فالحة وهى حتة قولحة
اما المرة الوحيدة التى دافعت فيها عن شرفنطح ، فكانت فى نفس اليوم الذى حدثت فيه اكبر الحوادث وافدحها فى حياتنا وحياة ابى . .
مضى مصيلحى يشرب دور الشاى بعد دور الشاى ويحكى :
كان زينهم يخطط لعملية كبيرة ، جمع لها كل الرجال
قال زينهم :
— انا رايى إحنا مش كفاية . . العملية عايزة رجالة اكتر
العسيلى — انا رايى نضم عطية البنهاوى ، بدل ما هو قاعد فى الخص صورة
مصيلحى — ما بلاش منه
ضبة — قبل كده قلنا له ، قال لا يمكن اكل من قصعتكم
شرفنطح — فقر وعنطزة
مغاورى — يمكن فاهم اننا ح ناكله
زينهم — لا . . اصل فيه نوع كده معقد
شرفنطح — ايوه هوه من النوع ده . . دماغه مقفول

مغاورى — نفتحها له

مصيلحى — لا . . نفهمه

العسيلى : ما تقرب يا عطية هنا جنبنا

عطية — الشمس عندكم بتنقح فى الراس

العسيلى — تعالى ونديك شمسية

عطية — وليه الدوخة ، مانا قاعد فى الضل

زينهم — انت قاعد فى البركة مش فى الضل

العسيلى — قاعد فى الريم والنتانة

عطية — الله . . الله . . دى حملة على ولا ايه

العسيلى — ايوة حملة على طبعك الحنبلى

عطية — وانا تاعبك فى ايه يا اخى . بتصرف على . بتاكلنى . باكل وباشرب من عرقى

شرفنطح — عرقك برضه يا عطية

عطية — يعنى إيه يا شرفنطح

شرفنطح — ماعرفش

واستطرد مصيلحى . . حط ابوك كباية الشاى التقيل على الأرض ، والتفت بكامل وجهه وصدره

— لا . . لازم تعرف

شرفنطح — ايه اللى لازم اعرفه . . انت على راى زينهم معقد اوى

زينهم — بس يا جماعة بلاش وجع دماغ

العسيلى — انت بتتهرب منا يا عطيه

عطية — اتهرب من إيه ، مش تفهمونى

زينهم — بتتهرب من القرش . من الرزق . غاوى فقر

عطية — مش كل القروش اللى البنى ادم يهرب منها

زينهم — يعنى انت عايز انهى قرش يا عطوه

ضبة — قرش الحشيش

مصيلحى — ما تصلوا ع النبى شوية

عطية — انتم بالعربى سكتكم غير سكتى

زينهم — شوف يا عطية . إحنا مش ح نجبرك على حاجة ، أول شىء الشغلانة دى مش ح تحصل فى بلدنا ، دى بينا وبينها ييجى عشرين كيلو

العسيلى — يعنى نارها مش ح تحرق هدومنا
— زينهم بس حلاوتها كبيرة . فكر بسرعة وقول
العسيلى — حود علينا ودوق فاكهتنا
عطية — فاكهتكم تفاح الجنة
زينهم — يعنى إيه
— زينهم خلاص يا جماعة ، ما تجبرهوش على حاجة ما بيحبهاش
شرفنطح — يعنى هو لازم يحبها علشان يغمس منها
زينهم — ايوه لازم يحبها ، كل البنى آدم ما يحب الحاجة يخلص لها ويجيب فيها نتيجة . .
• مصيلحى — طب انا ما بحبش السكة الطين اللى انت بتغرزنا فيها دى لكن أدينى بغوص
زينهم — ما هو كمان انت ما بتتقدمش
مصيلحى — انا رأيى الواحد يحب النسوان بس
شرفنطح — احسن حاجة فى الدنيا
عطية — احسن حاجة فى الدنيا الرضا
شرفنطح — لا . . النسوان بس
عطية — النسوان مش كل حاجة
شرفنطح — انت بالذات لازم تكون النسوان عنده كل حاجة
عطيه — اشمعنى انا بالذات
حوصر شرفنطح ، لكنه قال :
— اصل انت مراتك حلوة
عطية — وانت مالك يا نطع يا ابن النطع
شرفنطح — بقى انا اللى نطع ، شايفين يا جماعة ، آل انا اللى نطع
(وضحك شرفنطح ساخرا)
جن عطية وهاج ، وقام إليه ليضربه
قال شرفنطح : إجرى اتشطر على خيبتك ، جاى تعمل على راجل
عطية — يا نهار اسود ، دنا راجل غصب عن أجدادك
وأمسك به بشكل لا يسمح بأقل من قتله
عندئذ ظهرت ولعة
قالت : يا عطية عيب . . دى مش جدعنة

— مالكيش دعوة يا ولعة
— ليه دعوة يا عطية
— إزاى يعنى
— يعنى الكلام اللى بيتقال كتر
—عن مين
— عن بيتك
— طب ما تقولى
— مش قايلة . . انا بس باقول لك ان شرفنطح ما لوش دعوة وما لوش ذنب

زينهم — ايوه يا عطية ، ملكش دعوة بيه ، اهو طول عمره بيقول كلام بس اللى على راسه بطحة بيحسس عليها

عطية — إيه يا جماعة الحكاية

العسيلى — روح شوف نفسك

مغاورى — دور وانت تلاقى ، النسوان دول ولاد إبليس بعيد عنك

شرفنطح — روح اسال جابت الشمام منين

ذهل عطية . . انغرس فى قلبه كلام الرجالة كسكين ، وبالذات كلام ولعة . . وقف حائرا مشتعلا ، ثائرا . . غاضبا ، لكنه لا يرى ولا يفهم ولا يدرى ماذا يفعل ؟

قال : طيب

فى تحفز اندفع خارجا من الخص

همهم ضبة — والعمل يا جماعة . . الراجل ده طايش

زينهم — خليك تقيل . . اللى من نصيبك لازم يصيبك ، هوه انت الزمن ما عدّاش عليك كان يفهمك

اسرعت انا اجرى فى إثر ابيك ، لكننى لم الحق به إلا فى الدار ، وبعد أن حدث ما حدث

شردت . . بعد لحظات نهض مصيلحى وذهب ، ولم أملك القدرة على الوقوف لوداعه . . نمت .

غريبة فعلا ، لكننى نمت . . سقطت من ثقل ما حملت .

(٨)

أمشى أتمسح بالمسجد ، أطل من النوافذ القدسية . أدس نظراتى داخل البهو الكبير . هل ربى هناك فأدعوه . . سأصلى ختما سأصلى سأركع . سأسجد . سأقبل التراب والحصى والحصير . سأبكى . سأقطع وجهى قطعا صغيرة كدورق مهشم . أعصره رحيقا مالحا وأسكبه على المنبر وأقول يا رب . .

يارب الدنيا وخالق هذا الكون العامر . دعنى أتكلم . قل للسانى الممتد داخل حلقى كطريق مسدود . كن . كن .

بأمر ربى يا لسانى . كن لسانا ينطق ، ينطق بالحق ولا شىء غير الحق .

لمحنى عدد من الناس وانا اتمسح بالمسجد . بدأوا عنى حديثهم . اقتربوا منى . احاطوا بى .

قالوا : لم تحوم حول المسجد ؟ ليس فيه ما يغريك .

— أريد لسانا ينطق .

— ما امتع حياة الأخرس ، بل ما امتع حياة البهيمة التى لا تفهم .

— ليست هناك بهيمة لا تفهم . الكل يفهم والكل يحس ، والمهم القدرة على النطق .

— ما يخرج منك محسوب عليك .
— اريد ان اقول الحق .
— شهادة بادانتك . . البكم افضل .
اقتربوا مني اكثر وحاصروني . شفاههم تنفث الكلمات فى وجهى . لم اهتز ولم اتململ .
قلت : من يملك لسانا وبيانا ولا يتكلم ملحد زنديق ، يساعد القتلة على اعتلاء منصة القضاء .
انتم قتلة يا من تحملون الألسنة .
— ليست الألسن هى المشكلة .
— الكلام موهبة رائعة واللسان منحة والمحروم منه محروم من الحياة .
— لو منحت لسانا ستنطق كفرا ، ستوصى بالشر لصالحك ستنافق . والأفضل الا تتكلم . . اصمت . اننا نحدد الكلام كما نحدد النسل .
— اريد ان اتكلم ولو ليوم واحد . . دعونى اتكلم .
— اوثقوه .
— دعونى .
— اوثقوه .
— بالحياة اخطاء فظيعة .
— هى الحياة .
— غريبة
— ان لم تكن فليست حياة .
— غريبة .
— بدون الغرابة ستكون الحياة غريبة .
— كل من يملك اللسان يستطيع الخديعة .
— فيها وفيها .
— ومن الذى سيوقظ الناس من سباتهم .
— الأيام .

— متى .
— متى تشاء .
— محاولاتى معكم فاشلة .
— تطلب المستحيل
— انا فاشل لانى لا استطيع الكلام .
— كل انسان فيه نقص .
— اريد نقصا من نوع اخر .
— بالعدل تم توزيع النقص على العباد .
— لماذا خصنى بالبكم .
— امثالك خطرون على الناس .
— من ادراكم .
— من خصك بالبكم .
— وما السر ؟
— حكمة .
— مؤمن بها .
— يكفيك هذا .
— دعونى .
— شدوا عليه القيود .
— خففوها .
— بل زيدوها . اوثقوه والقوه فى النار .
— لا . لا احب النار . لا احب النار .

اشعلوا بالفعل نارا والقونى بها . صرخت من الألم . تشقلبت فيها . شىء لا يحتمل . تجربة مرة . ايها القساة . اشرفت على الموت . زعقت من فرط اللهيب . تبين لى ان القيود حلتها النار . قفزت منها وجريت إلى الدار .

النار التى اذتنى وعذبتنى ، خلصتنى من القيد .

تذكرت خص ولعة . أسرعت إلى صفيحة الجاز . حملتها معى وانطلقت .

اهلت على الخص الجاز . اشعلت فيه النار . تعالت السنة اللهب صرخت فرحا . نطقت . هللت وعدت إلى القرية . لا اكف عن الكلام .

صحوت من النوم فزعا . فتحت فمي احاول الكلام . لم استطع . انا هو انا . انا الاخرس ولساني هو لساني العاجز .

لا . . انا لست انا . ولن اكون انا . لن اكون .

حاولت النوم . لم تترك الافكار للنوم فرصة العودة إلى اجفاني . فكرة واحدة هي المسيطرة . لابد من حرق خص ولعة . هو الشر . كل الشر .

الخص هو حرق امي وسجن ابي وموته . وهو عجزي وقهري وضياع شاني . هو . هو كل ما في الدنيا من الم ودم وحرمان .

لابد من حرق خص ولعة كي يعود لساني . لم يكن حلما ما رايت . كان طريقا على ان اسلكه . واملا سيتحقق . وغدا سياتي .

قمت فاشعلت في خص ولعة النار .

قفلت راجعا . انتظر الانباء التي لم تات الا مع الصبح .

انتهى الخص تماما . ولكن ولعة اسرعت بالخروج منه . عندما احست بالحرارة . وعندما بلغت اذنيها حشرجة النار وهي تلتهم الغاب والأخشاب .

بعد ايام بني الخص من جديد . وعاد سيرته الأولى ولم انطق . بقيت كما انا . كما انا .

●●●

٩

ساءت فجأة حالة عمتى حفيظة زوجة عمى الشيخ بيومى ، حملوا إليها فى خلال أسبوع واحد عشرة أطباء ، من بنها ومصر .

كانت عاجلة تلك الرسالة الخاصة بدعوة روحها إلى السماء ، وكان اسمها واضحا فى كشف المطلوبين . حفيظة بنت وهدان .

مسكينة الله يرحمها كانت سوسة .

كان الجميع يسمونها « مفراك الشر » . ولما بلغ النبأ بعض أهل القرية لم يعرفوا أى حفيظة ، فهناك حفيظة « الغمشة » وهى إمرأة بلهاء لا يعرف أحد لها أهلا . تدور فى القرية بلا هدف ، وهى كما هى منذ خلق الله الأرض .

كان على من يحمل النبأ أن يقول « مفراك الشر » ماتت ، ولا يقول حفيظة .

عند ذلك يعرفون انها زوجة عمى فيقول الجميع :

— الله يرحمها كانت سوسة .

لم يمنعها الشلل النصفى الذى أصاب ساقيها ، واقعدها تماما فى ردهة الدار الكبيرة ، عن ممارسة دورها الشيطانى بكفاءة .

كانت توغر الصدور ضد كل من تراه فى حالة طيبة ، أو بدا عليه كرم الله .

كان منظره يزعجها ويستفزها ، فتدفع زوجها كى يورطه فى صفقة من الصفقات ، لا تلبث أن تكنس ما عنده أو تحمله إلى السجن حملا .

حتى العمدة كانت تستخدمه فى تلك المؤامرات ، لابعاد الاتهام عن زوجها

من ناحية ، ولكى تتنوع قوى الضغط من ناحية أخرى .
أذكر حيث كنت طفلا فى السادسة . أن دخلت وعمى إلى الدار ، وكانت تقطع الخبز وتلقيه للديوك الرومية والبط الذى يملأ الساحة .
فابتدرته قائلة :
— إيه يا شيخ بيومى .
— فيه إيه يا حفيظة .
— هوه انت ما بقتش شيخ بلد .
— ليه .. إيه اللى جرى .. أنا لسه جاى من البندر أهه وكل حاجة زى ما هى .
— أمال إيه العيال اللى بتتسكع فى البلد دى .
— أنهى عيال ؟
— الواد ابن نجية اللى ماشى يعاكس فى الصبايا .
— ابن نجية مين ؟
— الواد اللى كان لايف على هندى وأنا طردته .
— يا شيخة حرام عليك ده فى حاله ، ودايما وشه فى الأرض .
— ياه .. دانت فى العسل خالص
— مين بس اللى قالك الكلام ده .
— كل البنات بيشتكوا منه .
— عمل إيه .
— دور وشوف يا شيخ البلد .
إطمئن على بلدك اللى بياكل فيها الدود . الله يرحمه أبويا ، لما كان يكح بس فى بيته ، بس يكح ، كل راجل يخش داره ويقطع الخنس .
— ما تسيبينا من سيرة البيه المأمور بتاعك .
— الله .. إنت بتتمسخر على أبويا يا بيومى .. الله يرحم أيام ما كنت بتبوس إيده .. مش هوه اللى حطك الحطة دى .
— بقولك إيه .. قفلى .. أصل انت ما لكيش شغلة .
— الخلاصة .. تطقس ورا الواد ابن نجية ده ، لأن أبوه كان مصاحب الشيخ فرج ونازل رغى وسب فيك . وبيحكى له على سكتك كلها .. سكة سكة .

— إيه الكلام اللى انت بتقوليه ده .
— خلينى انا هنا اقعد الم وراك .
— فضيها سيرة .
كانت شخصية غريبة . ولا عجب فبلدنا . بلد الغرائب والعجائب والمتناقضات . وأغرب ما حدث هو يوم ممات حفيظة .
انقلبت البلد كلها فى دار عمى . تعزيه وتواسيه وتبكى . كل الناس كانت تبكى حتى الواد ابن نجية الذى كرهته وسبته . وهو شاب فى منتهى التقوى والصلاح .
تبكى الناس بحرارة وحرقة . كأنها كانت أمهم جميعا . وكأنها كانت الحنان والحب .
حملوها إلى المقابر فى موكب ضخم مهيب . حضره عمد ومشايخ البلاد المجاورة . مضى فى إثرها كل أهل البلد . يفتشون فى صفحات حياتها عن عمل طيب يذكرونه . لكن صفحاتها كانت خالية من كل طيب .
كنت اسير فى الجنازة إلى جوار احمد ابو عبد العال وزكريا الصيفى . مضينا صامتين . إلى أن قال لى أحمد مواسيا :
— شد حيلك .
هززت رأسى تأثرا . وقلبت يدى مشيرا إلى السماء . بما يعنى أنه أمر الله .
وقال زكريا :
— كانت ست ولا كل الستات .
ورد عليه أحمد .
— أمال يا ياسيدى أمال . . أصلك فعلك .
— لكن ح نقول إيه . أدى الله وأدى حكمته .
— كنت معدى عليها من أسبوع بس . ندهت عليه . وكانت فى وسط الدار . قالت لى خلى بالك من اختك يا أحمد . . اختك وولادها فى رقبتك يا أحمد .
— يا سلام . . كان قلبها كبير .
هممت أن اترك هذين الرجلين الكاذبين اللذين يستعينان بالكذب لاحياء الحفل . ولتحلية المسيرة المرة . .
فكرت أن أصرخ فيهم وفى الناس جميعا قائلا :
ليه دايما تحاولوا تحلوا الملح . الملح حلاوته أنه ملح . الدوا المر يشفى .

بلاش تحلوا الحقيقة وترشوا عليها اللى يجملها . الحقيقة جمالها فى كل حرف صادق فيها . ما تخافوش . ما يهمكوش . ليه لسانكم دايما متذوق . حتى فى وش الظلم وقدام طوفان الشر متذوق .

الزواق غش . والبنا بالزواق غش وأساس هش .

علشان كده كل ما بنطلع بنقع . كل ما بنعلى بننزل اكثر . وناخد كل هدر والتانى . قولوا الحقيقة ما يهمكوش . قولوا الحقيقة او ما تقولوش .

ولكن كيف يتاح لى ذلك ؟

كل ما فعلته انى تباطأت حتى تخلصت من أحمد وزكريا .

ومضى زحفنا الحزين إلى المقابر . والناس مازالوا يبكون . وأعجب لنفسى . كيف لا ابكى . بينما الغرباء يبكون .

عند المقابر بكيت . بكيت بشدة . لا اخالنى بكيت من أجل حفيظة . الأرجح أن بكائى كان من أجل امى الراقدة فى هذه المقابر . وربما كان بكائى على حبى المفقود . وقلبى المطعون ومستقبلى المظلم .

★ ★ ★

فى عصر أحد الايام التى تلت وفاة عمتى حفيظة . كنت فى الغيط . أخف قليلا من الذرة الخضراء . وأرميها للجاموسة وابنها .

سمعت صوتا أنثويا :

— يا عبد السلام . . يا عبد السلام .

كان عبد السلام تحت . فى قاع الغيط حيث لا يمكنه أن يسمع من يناديه بهذه الصورة .

تقدمت من صاحبة الصوت . فإذا امرأة تبدو من بعيد . هالنى جمال طلعتها وبهاء منظرها .

اقتربت منها واقتربت منى . قالت :

— ازيك يا قاسم . . أمال فين عبد السلام

إذن فهى تعرفنى وتنادينى باسمى . ارتاحت نفسى عند رؤيتها وتمنيت أن تبقى طويلا معى .

لم اتمكن من الرد عليها مباشرة . لأنى نسيت السؤال . شىء ما جذبنى إليها . بل أشياء .

اكتشفت بعد لحظات أنها البنت زينب . تصوروا البنت زينب أخت عبد السلام . البنت زينب أصبحت فجأة صبية . شابة يانعة . شىء غريب

احسست انها كبرت فجاة . جسمها ثار على سنها . رفض الانتظار كى ينمو كما تنمو كل الأجساد بالبطء المعتاد . لم يتمهل إلى ان يئن الأوان فتنضج ثماره ويليه اوان آخر لتكبر المفاهيم وتبزغ الآمال وتعبث براسها الأفكار .

رفض الجسد كل هذه القيود ، وهذا النمو الروتينى ، وقال حكمته مدوية . شىء غريب . والأغرب انها اخت عبد السلام .

شكل عبد السلام لا يمكن ان يؤدى ابدا مهما جملوه إلى صورة تمثل ربع هذه الصورة . سبحان من أبدع وصور .

والأغرب من كل الغرائب ان اسرتهم الفقيرة التى تعيش معظم ايام السنة على المش والجبنة والعيش الذرة ، تخرج أجسادا عفية ووجوها نضرة وجمالا فتانا وعيونا وَحشية وخدودا وردية وأيادى طرية وفوق هذا ثغورا باسمة وقلوبا سمحة وصبرا يفوق صبر الجمال . سبحان الله .

نظرت إلى جسدها بانبهار ، لاحظت انه ليس جسدا عاديا . نما فجاة وكفى .لا . بل يبدو ان ثورته لم تنته ، ما زالت هناك محاولات لمزيد من النمو والتعبير عن المكنون .

لاحظت انه يود ان ينفجر ، يمزق الثياب ، ولا يكتفى بهذا القدر من الثورة التى نقلته فجاة من مجرد عود رفيع جاف كعود الذرة فى نهاية الموسم ، إلى هذا الجسد المحتشد بالصبا الممتلىء حماسة وشبابا .

حدقت فيها طويلا ، وكانى أسال كل ملمح من ملامحها ، وكل سنتيمتر من جسدها العصبى المتوحش .

ماذا جرى لك ؟ . . اجيبينى . صارحينى . ماذا تناولت ؟ . . ما هى المادة التى خلقت منها . . ماذا يمكن ان اقدم لك ؟ وكيف أعاملك . . انا أو غيرى ! ثم ماذا بعد ؟

ماذا تنوى أن تفعل بعد ذلك ؟ . . إلى اى هدف تبتغى الوصول !

ضحكت وقالت :

— إيه يا قاسم . . إيه اللى جرالك ؟

فوجئت بالغمزتين اللتين لم تظهرا إلا بعد أن ضحكت . اكتشاف جديد . اكتشفت أيضا ان لها وجها آخر غير الذى رايته منذ قليل . . اى قبل أن تضحك .

كان الآخر جميلا ، ولكن كل ما فيه ساكن ، مستقر فى مكانه ، ومرتبط بما يجاوره فى تشبث .

أما بعد أن ضحكت فقد تبعثرت الملامح ، واصبح كل منها يفعل ما يتراءى له . إنفتح الفم . وعلت الخدود ، وتراجعت لتظهر الغمزتان ، واغمضت العينان واتسعت الجبهة وهبط الذقن ، واضاء الوجه و . . و . . واضاء المكان كله . رقص على ضحكتها الجميلة . ضحكتها التى لا تحفل بشىء .

واكتشفت شيئا أخر . اكتشفت انى أضحك . اكتشفت انى فرح جدا وسعيد جدا . إذ أرى البنت زينب على هذا النحو .

اكتشفت انى سعيد ولو للحظة . وكنت من قبل تعيسا . غاية التعاسة لأسباب كثيرة لا تعد ولا تحصى .

هذا الانسان مخلوق عجيبب حقا . تنهال الدنيا عليه بالظلم والظلمات والقهر والجور والبؤس واليأس ، حتى ليكون ثقب الابرة أرحب من الدنيا ، فإذا قيلت له نكتة ضحك وأشرقت الدنيا فى وجهه ، أما إذا ضحكت زينب أو فردوس ، فإنه يشعر فورا بأنه سعيد غاية السعادة ، وأنه أخذ من الدنيا أكثر مما يستحق .

— إيه يا قاسم . فين عبد السلام .

اشرت إليها كالمخدر بمعنى انه تحت .

إستدارت لتتجه إليه .

بدأت أكتشف من جديد مشهد الجسد العظيم وهو يتجه فى مسيرته المقدسة إلى تحت . الى قاع الغيط .

تأملته طويلا وبإمعان ، وكأنى أرى جسدا لأول مرة .

نعم انى أرى جسدا أنثويا . أنثويا حقيقيا لأول مرة . ليس لأن البنت جميلة فعلا ومثيرة فعلا . لكن يبدو أننى لم اكن انظر من قبل إلى النساء ويكفى أنى لم انظر مرة إلى جسد فردوس ولا أعرف عنه شيئا .

فردوس بالنسبة لى ليست مخلوقة موجودة على الأرض ، إنها موجودة داخلى ، فى رأسى . فى قلبى . فى روحى . فى عروقى ، وأنا حين أنظر إليها أراها بأعماقى تسير ، وليس على الأرض .

أنا لا أعرف لها وجودا محسوسا خارجيا . إنها رمز حياتى ونور معنوى أهتدى به فى الظلام وأستظل به فى الشمس . ولكن . . أه النساء .

أنا لا أعرف من النساء غير أمى ترك . لكن زينب وأمثالها شىء أخر ونوع اخر . شعورى تجاههن مختلف . مختلف تماما .

بهرنى هذا القدر الكبير من الاكتشافات . ودفعنى الفضول أن أنظر إليها من جديد . لكنها تلاشت وسط أشجار التين .

صعدت إلى الجميزة لأراها . فلم يكن باستطاعتى أن أوقف رغبتى التى تصرخ فى . لمتابعة زينب وتأملها .

لم أتبين شيئا . لكننى بقيت فوق الجميزة أرقب الكون بدلا من زينب وربما من وحى زينب .

بحلقت فى الشجر وتطلعت إلى السماء وهبطت إلى البيوت . ونسيت نفسى فى ذلك الملكوت .

★ ★ ★

هذه الأشكال الممتدة أمامى تقتسم الحياة وتكون الدنيا . الدنيا العجيبة سبحان الله .

هذه هى الغيطان الخضراء تمتد أمام عينى لمسافات بعيدة . تعلو وتهبط تزهو بألوانها المتعددة وكلها خضراء . لكنه اخضرار متباين يشتمل على درجات عدة من اللون الأخضر .

فالذرة حقا خضراء . لكنها غير الكرنب الذى يشوب اخضراره زرقة . وغير البرسيم ذى اللون الأخضر المضىء . وغير أشجار البرتقال التى اسود اخضرارها . وغير الغاب الذى ابيض إخضراره . وغير الزنزلخت والمانجو والمشمش والجوافة الذى لابست أوراقها الخضراء صفرة . وغير الكافور والعنب و . . و . .

ها هى ذى كلها تمتد أمامى . لا يمكننى إلا أن أصفها جميعا بالخضرة . لكن شتان بين خضرة وخضرة .

جلست أنتظر عودة زينب .

يخرب بيتك يا عبد السلام . بقى ده كله يطلع منك . قصدى يطلع من عندكم أخذت أفكر فيها طويلا .

هل تصلح زوجة ! . . زوجة لى . أنا . لكنى أحب فردوس . وفردوس الآن ملك يوسف . وهل ترضى زينب بى ؟

آه . . سنعود مرة أخرى للمعادلة الصعبة . آه . لنغلق هذا الباب . فهو واسع عريض سيجر علينا مالا نحتمله .

نويت أن أنتظر لأراها مرة أخرى . أمتع عينى بمنظرها . لكنى قررت من جديد رفض الانتظار والبعد عنها . فجسدى لا يحتمل جروحا . ومشاعرى

لا تحتمل وعودا كاذبة وزيفا ، ومحاولات فاشلة وافكارا بالية وتافهة وسخيفة .

الناس عموما ، والنساء بالذات ، نظرتهم محدودة وسطحية ، ولا يستطيعون وزن الأمور ، ولا يعرفون المقادير الحقيقية للرجال .

من بعيد رايت زينب قادمة ، بصحبة عبد السلام . هبطت إلى الأرض على عجل . دعوتها للجلوس فابت وسلمت على ، فسلمت عليها ساهما شاردا وتحولت عنى إلى الطريق . ولم اتحول عنها .

استاذن عبد السلام ليصحبها إلى الدار . كانت الشمس قد غربت فقررت العودة . اسرعت في اثرهما ، على الرغم من أن طريقهما غير طريقى .

عندما اقتربت من دوار العمدة .

صك سمعى صوته الجهورى . دنوت من النافذة . ارهفت السمع فإذا به يقول :

— ده الكفر كلاته ح يطير من الفرح لما قلت لهم إن سيادة مدير الأمن شخصيا جاى يزور البلد . . آه . . كنت عايزها تبقى مفاجأة . . آه . . ماهى مفاجأة سارة بإذن الله .

, أيوه طبعا . طبعا حاضر يا سعادة الباشا . حد يقدر ما ينتخبوش ده كان يبقى آخر يوم في عمره . لا يا باشا . إعتبر الكفر كلاته في جيب ابن اخت سعادتك . ما تحملش هم . . أسالهم ؟ أسال مين يابيه . . كلهم رهن إشارتى . . إلا أسالهم حيبجى مع سيادتك البلد . ما يكونش في بالك . كل شىء ح يكون تمام . أيوه إن شاء الله . مع السلامة .

واعاد السماعة بعنف وهو يسوى أكمامه :

— غور الله يسمك .

مضيت إلى البيت وانا ادهش كيف أن هذا التليفون وهو قطعة من الحجر الأسود يمكنه أن يتكلم ، ويصل صوته إلى المتحدث فيه من بعيد ، ولو كان من مصر .

فها هو العمدة يسمع صوت مدير المديرية ورد عليه . فكيف تسنى له أن يتكلم ، وانا الذى خلقنى الله سبحانه لا أتكلم .

لم تستطع زينب بما تمثله من جمال وجاذبية ، وانوثة ولهيب تاجج بداخلى وبهرنى ، أن تردنى عن التفكير في التليفون العجيب .

كان يوما مشهودا وعظيما ، ذلك الذى رايت فيه زينب . كشفت لى فيه عن



كنوز النساء وعرفتني عليها ، وأزاحت الحجب عن عيني ، وكم من كنوز لا أعرفها . لكن التليفون اللعين ظل متشبثا بخناقي ، محتلا فكري . لا يكاد يترك لي لحظة أخلو فيها إلى نفسي أو إلى غيرها .

★ ★ ★

في اليوم التالي وكان الخميس ، فوجئنا بالزينات تعلق على منزل إبراهيم أبو خفاجة .

علمنا أن شريف صديق يوسف الوطواط سيعقد قرانه على هنية بنت إبراهيم أبو خفاجة .

كان شريف زميل الوطواط في الدراسة ، لكنه أفلح ونجح ، وأنهى دراسته في التجارة ، ويعمل موظفا بمحلج بنك مصر في بنها ، ويملك في بلده تلا منوفية . إثنى عشر فدانا .

★ ★ ★

وافق أبو خفاجة علي زواج إبنته بشريف على الرغم من أنه كان قد طلب من عزيز ابن عمي أن يتزوجها ، لكن عزيز رفض الزواج كله . بها أو بغيرها .

كان أبو خفاجة كعادته يبحث عن المال والأطيان والضمان ، ولما جاء يوسف بشريف ، وافق بعد أن ذهب مع ولديه وابنته الكبرى فاطمة جاء لزيارة شريف وأهله في تلا ، وليتأكد على أطيانه وماشيته .

تم الاتفاق قبل وفاة عمتي حفيظة بعشرة أيام ، على أن يتم الزواج بعد أسبوعين . أي في هذا اليوم .

وحين بدأت البلد تزوم وتهمهم بالرفض ، والاحتقار للرجل الذى لا يراعى الحرمة ، ولا يحترم الميت ، والذى كان يبكي منذ أيام على حفيظة بكاء مرا .

قال أبو خفاجة وولداه :

أصل العريس مسافر السعودية بعد يومين .

سكت الناس عن غير اقتناع .

ومضى وولداه وزوجته وبناته يدعون أهالى البلد لحضور الفرح ، وهم يعتذرون ويكررون أسفهم الشديد للظروف القاهرة .

مساهمة في تسهيل الزواج وإنهائه بلا عقبات لمساعدة صديقه شريف ، قام يوسف بإقناع والده بحضور الفرح هامسا في أذنه بضرورة التعجيل بالزواج ، لأن بنت أبو خفاجة كانت تحوم حوله وتريد إيقاعه في شراكها .

أسرع العمدة إلى عمي وطلب منه الحضور ، حتى إذا جاء إلى الفرح . دفع هذا كل أهل البلد للحضور والمشاركة .

ط

درت بين المدعوين ، وعلى غير عادتى فى مثل هذه المناسبات ، أخذت أحدق فى البنات . ابحث فيهن عن زينب .

لكن التليفون كان يجوس خلال رأسى ويعكر على صفو الفرح ولا تستقيم معه رغبتى فى الاستمتاع بالمرح المنتظر .

وطال غياب زينب ولم تظهر فردوس .

لم استطع البقاء فى الفرح . توجهت من فورى إلى دار العمدة . درت حول الغرفة التى بها التليفون . لها نافذتان ، كل نافذة عليها من الخارج قضبان الحديد، وبعد الحديد شباك خشبى مغلق بإحكام . الباب الوحيد إليها يفتح من داخل الدار .

لمست الباب الكبير ثم عدت فتركته ورحت أتفحصه . باب ضخم عرضه أكثر من متر ونصف متر . ضلفة واحدة . عليه قبضة يد حديدية . نظرت إليها ونظرت إلى . كأنها تقول لى إياك أن تقترب . إنها دار العمدة .

الباب مفتوح .

كأنى أخشى أن يصحو النائمون . لمست الباب . دفعته بهدوء راجيا ألا يصدر عنه صوت ، لكنه أن . رفعت يدى عنه . نظرت خلفى وتسمعت .

لا أحد . الطبل يدوى والزمر يملأ الأسماع حتى المحطة البعيدة .

عاودت دفع الباب . أن . دفعته بما يكفى لأدخل بجانبى . فتحته مسافة أقل من نصف متر . أن . سمعت صوتا نسائيا :

— مين ؟

لم أرد . دخلت فورا إلى غرفة التليفون . مظلمة . سمعت الصوت النسائى يقترب . قبعت خلف الباب .

— مين . مين ؟

الصوت يقترب والنور يتسرب من تحت الباب إلى الغرفة ، فيزيح الظلمة القاسية .

ها هو التليفون يقبع هناك . الكنبة هناك وعدد من الكراسى تقف فى طريقى كالمقابر .

مكنتنى قصاصات النور الضئيلة من التعرف على الغرفة ومحتوياتها . إذ دخلت على المرأة سادعى لها أنى عفريت . أخيفها وأجرى حتى ولو أدى الأمر أن ألقى عليها مصباحها .

عادت أدراجها قائلة :

— يمكن الهوا .

بصعوبة نهضت من جلستى التى جمدتنى . سعيت ناحية التليفون حملته تحت ابطى . احسست انى امتلكت فرسا مهيبا . تحركت للخروج . توقفت فجاة . كاد التليفون يسقط . إنجذب منى فجاة لكنى تشبثت به . لعل هناك من يجلس تحت المنضدة ، شده منى . بحلقت فى الظلام ، تسمعت . لا أحد شددت سلك التليفون . تبين لى انه موثوق بالحائط . جذبته بشدة . لم تفلته الحائط . اخرجت مطواتى وقطعت السلك . حملت الكنز السمين إلى جنينة البرتقال . دخلت الخص وانا ارتجف .

لم أشعل المصباح ولا حتى عود كبريت . فى الظلام جلست ساكنا . وضعت التليفون فى حجرى كأنه ابنى . هدات .

اود لو أتامله واتشممه واشاهد جماله . لا أعرف كيف يتكلم هذا الحجر الأسود .

بدأت العمل . هناك علبة ثقاب فى هذا الركن . فى الظلام بلغتها يدى . أشعلت عودا وتأملت التليفون اللعين للحظة .

شكله غريب . نظر إلى . ادركت انه يود ان يقول شيئا . فمن غير المعقول ان أحمله إلى هنا ولا يقول شيئا . لابد انه غاضب او خائف او متحفز او ..

رفعت السماعة . يضع المتحدث فمه هنا وأذنه هنا ، أو العكس لست ادرى . انهما متشابهان تقريبا . أمسكت عود الثقاب بيد والسماعة بيدى الأخرى . وضعتها على اذنى . لسعنى العود وانطفأ .

انقض الظلام بعنف فسيطر على كل ما حولى . انتظرت . اشعلت عودا . تفرجت عليه . حاولت ان اسمع ماذا يقول . لم اسمع شيئا . اشعلت ثالثا ورابعا .

لم ينطق التليفون بحرف . لم يحدثنى . اريده أن يؤنس وحشتى . يبدد ظلامى .

هممت أن أقول له : ألوه كما يقولون أو

— أيوه يا مركز .

لكنى بالطبع لم أستطع ولهذا لم يرد على .

حتى هذا الحجر اللعين لا يأبه بى . أهذا حجمى فى الدنيا . أهذه إذن قيمتى وهذا قدرى وقدرتى .

قررت أن أحطمه بالفاس . تذكرت أنها هناك فى الحظيرة الجوانية فى الطرف الآخر من الغيط .

حفرت له حفرة ودفنته فيها . حتى ابحث له عن حل .
في اليوم التالى علمت أن العمدة كاد يجن . اقتحم مع خفرائه وشيخ خفرائه وشيخ البلد . كل الدور يبحث وينقب .
في اليوم الثالث جاء العسكر من المركز . فتشوا بلا جدوى في كل مكان حتى خص ولعه . اخذوا العمدة معهم إلى المركز . وقيل انهم ضربوه واهانوه وسبه البيه المأمور لخيبته وضياع هيبته .
مرت الأيام وأنا أحاول كل مساء . أن أكلم التليفون أو يكلمني بلا فائدة .
أخيرا ألقيت به في الترعة . وظل هناك منقوعا في الماء إلى أن عثر به أحد الصبية الذين نزلوا الترعة وقت الجفاف لجمع السمك .

★ ★ ★

جاء الشتاء فلزمت الدار ، ولم أعد أسهر في خص ولعة . كان البرد شديدا منعنى من الحركة ،وهذه عادة أهل بلدنا في الشتاء . قضيت ليالى كثيرة بالدار مستندا إلى مرفقى . ساهما . شاردا . تدور عيناى في فناء الدار . هناك أمور كثيرة يتردد صداها في رأسى دون أن أستطيع الامساك بواحدة منها . كلها تتصارع في وتقتسمنى . ثم تختلف على القسمة وتهزنى وتصرفنى عما حولى . ولا أنتبه إلا على صوت الريح في الخارج وهى تزوم ككلب يئن . ويقوى عزمها فتصفر وتدق الجدران وتهز الشجر . وتحاول النفاذ من تحت الباب . كأنها نفسها تسعى للهرب من البرد القارس .
في صمت تقوم أمى العجوز . فتشعل النار في الموقد الذى يشبه نصف كرة . أظل ابحلق في النار التى تشعلها وتهذبها وترتب في أحضانها القوالح وأفرع دقيقة من شجر التين . تكسرها وتسند بها البناء المشتعل في الموقد .
قالت لى في إحدى الليالى :
— قرب يا قاسم من النار . البرد شديد يا ضنايا .
وعندما اقتربت سألتنى :
— مالك يا ابنى بتفكر كده وسرحان .
لم أجد غير الصمت الحائر جوابا . وبقيت لى الدهشة . هل يبدو على أننى أفكر . ألا يستطيع الانسان أن يخفى عن الناس حتى تفكيره .
أحضرت كوز الشاى . ملأته بالماء . دسته في جانب من النار .
قالت وهى تضع الفنجانين الصغيرين بيننا .

— تصور الفناجين دى كان جايبهم اللى يرحمه جدك فضل ابو عمك شحاتة بعد ما اتجوزنا بييجى شهرين تلاتة .

قالت هذا لى ألف مرة قبل هذه المرة ، ولكنى ادهش لسماع الخبر واقول لنفسى :

— لو كان فيه أولاد كان زمان الفناجين ادشدشت من سنين .

عاد الصمت مسرعا ليشملنا ، لكنه لم يستطع أن يمنع عن اذاننا أنين الريح وطقطقة فروع التين المحترقة .

فاجأتنى أمى بسؤالها :

— انت عايز تتجوز يا قاسم .

ماخطب هذه المرأة ! لقد وضعتنى الشتاء فى حجرها ، لتعبث فى رأسى كالطفل الصغير . الأم تظل أما حتى وهى جدة . بل وهى محمولة إلى القبر .

أنا لم أعرض عليها أو على غيرها رغبتى فى الزواج . لا أنكر أنها طافت بخاطرى .

تجلت أمامى صورة زينب وهى تتلوى على الطريق . دب فى صدرى خطوها رقيقا ساحرا . شعرت بالبرودة الشديدة والقشعريرة . احتجت للدفء ولم تكفنى النار .

دست زينب نظراتها طويلا فى عينى . غابت فجأة وأطل وجه فردوس الهادىء الوديع ، تشوبه شائبة الحزن الخالد . تعالى خفق قلبى .

كنت مرتبطا بفردوس ، لكنها فصمت عرى هذا الرباط . ذهبت إلى الوطواط ، وتركتنى هائما فى الخلاء شريدا مطرودا .

فكرت فى فردوس بسرعة شديدة . سألت نفسى بسرعة أكبر هل تود الزواج أم لا . أجب سؤال أمك . تركتك فردوس فتزوج . لماذا تنتظر .

هل تعتقد أنها ستترك يوسف الوطواط ، الحيوان الأرعن الذى يعيث فى القرية يفعل ما يشاء وقتما يشاء وتأتى إليك .

تخل عنها . دعك منها . إبحث عن نفسك . فكر . سؤالها يحاصرك والحديث بينكما ممتد . والسؤال محدد . ربما تمر سنة أخرى حتى تسألك نفس السؤال .

هل تصبر حتى تتضح الأمور . أى أمور ؟ . . إن المرأة إذا أرادت فعلت ، وهى قد أرادته . إلا إذا أخذه الموت ، أو شىء مثله كما أخذ السجن أبى من ولعة . وقد شغلت به طويلا وهو متزوج بأمى ، ولم تتخل عنه وهو

فى السجن . بل سعت إليه وكلفت من أجل الدفاع عنه محاميا كبيرا .
هذا هو الحب وهذه هى المرأة . لقد طردتك من أرضها . ماذا تنتظر ؟
النساء مخلوقات عجيبة وقلوبهن أعجب .
إبحث عن أرض أخرى .
والآن قل لأمك كلمة : انطلق .
أمى مشغولة أو تحاول ، بوضع الشاى الجاف من حفنتها فى الكوز .
أشرت لها بمعنى أن الوقت لم يحن بعد .
حاولت أن أسد عليها الطريق ، فلا تعود لدفعى إلى موضوع الزواج .
سألتها عن أمى وأبى . وهذه عادتى بين الحين والحين . كلما اشتد جوعى للحنان سألت عنهما . وكلما شعرت بجفاف حلقى وظمئى بحثت عنهما .
قالت لى الكثير عن طيبة أمى وأبى وحبه للمرح والتدخين والضحك وشرب الشاى والانفاق اللحوج لكل مليم يكسبه .
امتد حديث أمى حتى بعد أن شربنا الشاى عدة أدوار ، وامتد وأنا أجلس أمام النار . أفتل الحبال بأعواد التيل ، وأخيط « غبيط » الردم والسباخ بالدوبارة والمسلة .
كانت أمى ترك تشترى الغبيط من عمتى « جُنوب » التى تخصصت فى غزل الصوف وملابس الكتان . وكسبت منه مكاسب طائلة .
تربى الخراف وتجز صوفها وتنفشه وتغزله ثم تبيعه للنساج فى طوخ أو بنها .
كما كانت تغزل الكتان الممتاز غزلا دقيقا بعد أن تمرره على فمها ، وتنسجه عند النساج ثم تبيعه لكبريات نساء القرية . ليصنعن منه القمصان الخارجية الفخمة ، يرتدينها فوق الملابس كعباءة الرجال دلالة على الأبهة والخير .

• • •

فردوس أصبحت كالربة العاقة بالنسبة لكاتب

فردوس أختي

١٥

عدت أبحث عن فردوس بعد أن كنت أحاول البعد عن طريقها وأتحاشى رؤيتها . كانت الابنة العاقة وكنت الأب الذى لا يكره ولده العاق ، ولكنه يكره أفعاله . هو ولده الذى لا يستطيع انتزاعه من نفسه رضى أو أبى .

ارادت أم لم ترد هى زميلة صباى ، شريكتى فى سنوات الوحدة . هى أول وآخر من علمنى الحب ، وفتح عيون قلبى عليه ، وأيقظت روحى الناعسة .

لذلك عدت ابحث عنها ، ابحث عن نفسى فيها . انقب عن حيرتى فى عينيها الحائرتين . أفتش عن عذابى فى عذابها . نحن وإن كان كل منا متجها وجهة أخرى غير وجهة صاحبه ، إلا أننا يمكن أن نتكلم لغة واحدة ، ونحس بإحساس واحد ، على الأقل هو القلق والحرمان .

عدت لفردوس ، عودة الأخ الذى لا يجب عليه أبدا أن يترك أخته للرياح مهما كان حظها التعس ، أو خطوها النزق .

عدت لفردوس صديقة الأيام الحلوة . أيام الطفولة والدراسة . الأيام الأولى لاكتشاف الحياة والناس . الأيام المفعمة بالسذاجة والطهر والبراءة .

فردوس هى أيضا صديقة الأيام المرة . أيام الوحدة والحيرة ، مع أناس لا يحسون .

فى أحد الأيام ، كنت أرتاح بعد عناء يوم عمل طويل . تذكرتها . حولت بصرى إلى أرضهم . وجدتها تجلس عند الطرف البعيد ، والغريب أنها كانت تنظر إلىّ كمن يراقبنى أو يترقب نظراتى .

أدركت على الفور أن نظراتها تنادينى . تدق بابى .

بلا وعى نهضت . سويت جلبابى . سعيت ناحيتها . وقبل أن أبلغها بخطوات . مالت برأسها تعبث فى حصى الأرض .

امسكت يدها فى صمت . جلست . رفعت إلىّ بعد قليل رأسها ، فإذا عيناها مترعتان بالدمع ، لم أحتمل . سألتها فلم ترد .

ربت على يدها إلى أن هدأت وسكنت . فتشت فى رأسى عما يضحكها . ما الذى يجب أن أتذكره الآن ليضحكها .

ذكرتها بشحاتة ابن خالتها الذى كان يحب المراهنة ، فيأكل مثلا كيلو فسيخ بالقشر مقابل جنيه ، وكان يكسب الرهانات دائما ، إلى أن راهنه أحدهم على أن يأكل كيلو جرامين من الحلوى الطحينية . وبالفعل أكلهما عن آخرهما وكسب الرهان لكنه ظل طوال النهار يسهل ، حتى لا يكاد يخرج من دورة المياه إلا ليعود إليها . وبقى أياما يعانى من هذه الأزمة .

ضحكت فردوس . فتشجعت وأتبعت الحكاية بحكاية ، وتواصلت أحاديثنا . . ومع الوقت تخلصت من برودة الغربة والوحشة .

عادت إلى كلماتنا الحرارة المعهودة ، واستيقظ الود الذى غفل عنا أسابيع .

مرت أيام ونحن نلتقى . يسعى كل منا للآخر ويبحث عنه ، روضت نفسى على أن تقنع بها كأخت لا كحبيبة وكزوجة .

صنعت لى بيدها طاقية شهباء من أرقى الأصواف ، كانت عزيزة عندى وغالية . لا أخلعها عن رأسى إلا عندما أنوى القيام بجهد فى الغيط أو عند النوم .

أمكننى عدة مرات أن أراقبها وهى مع الوطواط ، كنت أخاف عليها منه ، ولا أعترف بالعلاقة بينهما ، أحس أن بهذه العلاقة خللا ما وأنها عاجلا أو آجلا مقطوعة ولن تستمر . كيف وعلى أى أساس ؟ لا أعلم .

بعد أيام تسرب الكدر إلى وجه فردوس ، وشاب كل حركاتها وإيماءاتها . لم أحتمل أن أراها على هذا النحو ، معتمة الوجه . مربدة الملامح . تعيسة . سألتها بإشاراتى الواضحة :

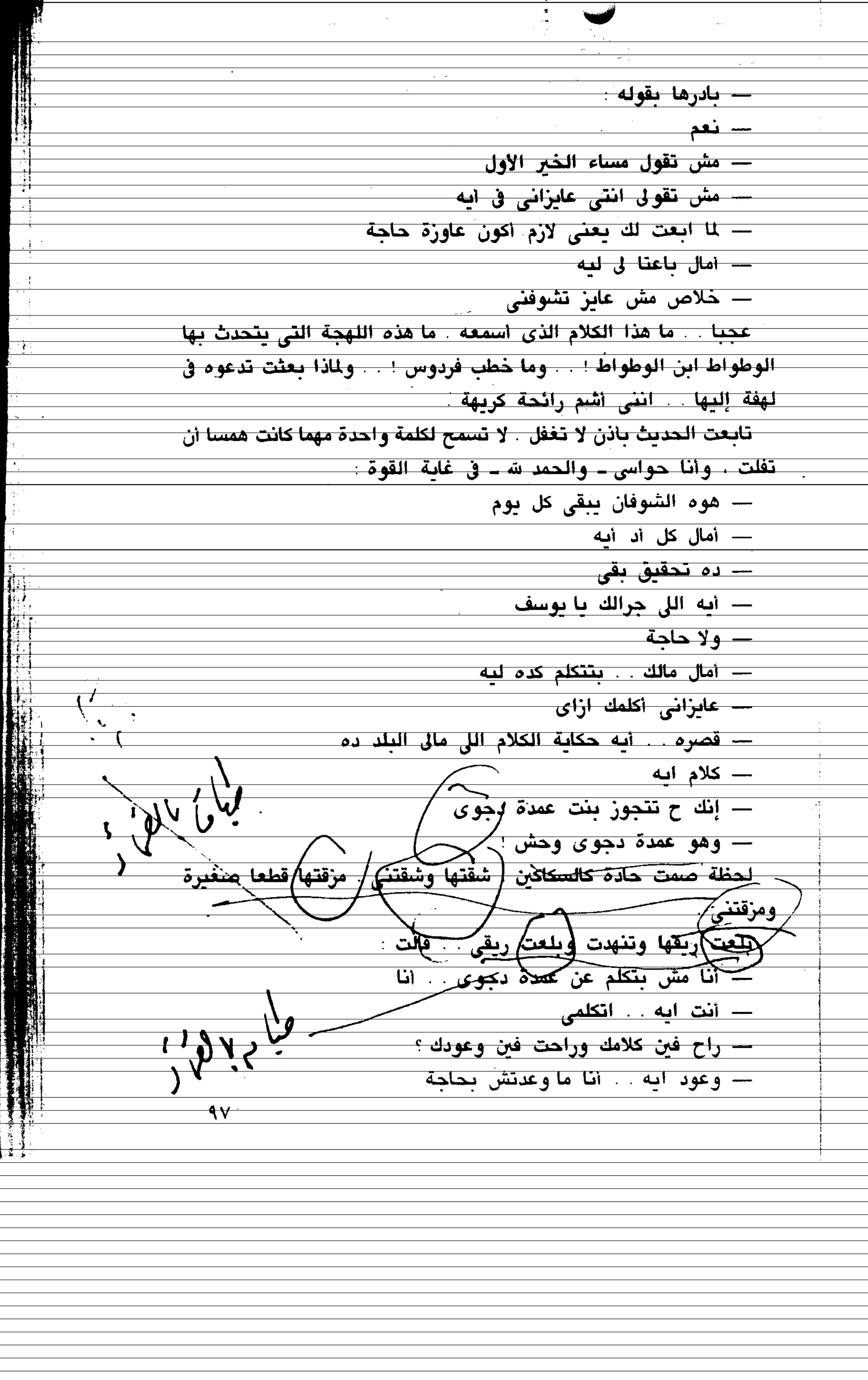
— مالك ؟

— أبدا

— شكلك مش عاجبنى

— مفيش حاجة

توقفت . قطعت حبل أسئلتي الطويل . الطويل جدا وبلا نهاية . لم يكن من الممكن أن أستمر وهي لا تود الاجابة .
كان السلام البادي على وجهها وفي عينيها يعلن بكل وضوح أن هناك ما يعكر الصفو ، ويبعث القلق .
آثرت الصمت وتطلعت إلى السماء .
تابعت أسراب الحمام وهي تدور حائرة . لا تعرف هل تقف على سور المئذنة العالي ، أو تهبط على الأسطح . تهيم في الفضاء كأنها قصاصات بيضاء من الورق ألقاها الله من السماء .
عدت إلى الحمامة الساكنة أمامي على الأرض ؛ تفكر في أشياء لا أعرفها .
مهدت قطعة مربعة من الأرض لنلعب « السيجة » . أحضرت الحصى ونوى البلح وثمار التين الخضراء التي سقطت من أشجارها . دعوتها للعب . رفضت .
عاودت عرضي . قبلت بلا حماس . بدا لي بعد دقائق أنها في عالم آخر ، وأن يدها التي تنقل الحصى غير واعية على الاطلاق .
استأذنت ونهضت .
بعد غروب شمس اليوم التالي . تركت الغيط في طريق عودتي إلى البيت ، فإذا بي أرى من بعد فردوس . تسير على القناة الصغيرة بين الغيطان لتسقط بعد خطوات . خلف المدرسة القديمة . ثم تظهر في نهاية الطريق العام الذي يفصل بين الغيطان والمدرسة من ناحية وبين الترعة وغيطاننا من ناحية أخرى .
تبعتها من جهة الترعة إلى أن بلغت الكوبري . لم يكن ثمة شك في أنها على موعد مع الوطواط . وإن بدا الطريق خاويا ، ولا أثر فيه لمخلوق . لا ذاهب ولا آيب .
جلست فردوس على كتف الكوبري الحجري ، وكمنت أنا خلف ساقية قديمة قبالتها . سمعت بعد قليل طرقات عصا على جلباب .
كان الوطواط قادما . يضرب جلبابه بعصاه ، وكأنه يحاول أن يدفع عن نفسه الوحشة والصمت المخيف .
بلغ موضعها ودق قلبي بعنف ، من شدة الغيظ والانفعال . سيعانقها وسينفث سمه في جسدها . سيدنس الطهارة ويلوث البراءة . ماذا يصيبنا من الوطواط إلا الأذى .



— بادرها بقوله :

— نعم

— مش تقول مساء الخير الأول

— مش تقولى انتى عايزانى فى ايه

— لما ابعت لك يعنى لازم أكون عاوزة حاجة

— امال باعتا لى ليه

— خلاص مش عايز تشوفنى

عجبا . ما هذا الكلام الذى اسمعه . ما هذه اللهجة التى يتحدث بها الوطواط ابن الوطواط ! . . وما خطب فردوس ! . . ولماذا بعثت تدعوه فى لهفة إليها . اننى أشم رائحة كريهة .

تابعت الحديث باذن لا تغفل . لا تسمح لكلمة واحدة مهما كانت همسا أن تفلت ، وأنا حواسى ـ والحمد لله ـ فى غاية القوة :

— هوه الشوفان يبقى كل يوم

— أمال كل أد أيه

— ده تحقيق بقى

— أيه اللى جرالك يا يوسف

— ولا حاجة

— أمال مالك . . بتتكلم كده ليه

— عايزانى أكلمك ازاى

— قصره . . أيه حكاية الكلام اللى مالى البلد ده

— كلام ايه

— إنك ح تتجوز بنت عمدة دجوى

— وهو عمدة دجوى وحش !

لحظة صمت حادة كالسكاكين شقتها وشقتنى مزقتها قطعا صغيرة ومزقتنى

بلعت ريقها وتنهدت وبلعت ريقى . . قالت :

— أنا مش بتكلم عن عمدة دجوى . . انا

— أنت ايه . . اتكلمى

— راح فين كلامك وراحت فين وعودك ؟

— وعود ايه . . أنا ما وعدتش بحاجة

— واللى بيننا
— كل خير
— مش باين
— أما انت عبيطة قوى
— أنا عبيطة وبس
— أبوها راقد على ثلاثين فدان واهو الخير ح يعم
— وانا ابقى ايه عشان الخير يعم
— أعز منك عندى مفيش

وضع يده على كتفها، فدفعتها بعيدا، عظيم، أحسنت التصرف يا فردوس. ياليتك تلقينه هو بعيدا عن حياتك. إنه وطواط خطير يا فردوس. أنت لا تعرفينه. إنه ثعبان. ناعم الجلد. ناعس الطرف. هادىء الخطو، لكنه لاذع السم.

وضع يده على خدها ولاطفها، فالقتها بعيدا.. قالت:

— فوق لنفسك يا يوسف
— أنا فايق على الآخر يا دوسة
— حس بيه شويه
— حاسس
— أنت مش حاسس بحاجة. لو كنت حاسس كنت تتصرف
— أتصرف فى أيه
— تتصرف فى اللى احنا فيه
— إحنا فى أيه بعد الشر
— فوق يا يوسف واتكلم عدل
— انا يا بنت الحلال باعزك قوى قوى، لكن بصراحة كده الجواز قسمة ونصيب.

طاخ. صفعة قوية على وجهه. طاخ. صفعة قوية على وجهها. نهضت واقفا لأسرع إلى الكلب الذى ضربها، فاشرب من دمه. لقد أطاعه قلبه الحجرى، وجرؤت يده القذرة على إهانة الطفولة والبراءة.

تشبثت بحديد الساقية. أرهفت السمع وانا لا أكاد أسيطر على أعصابى وحماسى لتاديب الوطواط ابن الوطواط.

حاولت أن تصفعه مرة أخرى، لكنه أمسك يدها وهزها بشدة:

فوقى لنفسك وابعدى عن طريقى ، واوعى تبعتى لى تانى
ورمى ذراعها
— ح ابعت لك وابعت لك ، لغاية ما تعقل وتسيبك من اللى فى راسك وتنتبه لحالك
— انا منتبه كويس قوى . فوقى انت لنفسك
— انا ح اديك فرصة اسبوع ، لو ماجتش تصلح غلطك ح اروح لأبوك واجرسك فى البلد كلها .
— جرسى . ح تقولى ايه . . يوسف ضحك علىّ . . طب وانت كنت فين .
يا خبر اسود . ضحك عليها . . كيف ضحك عليها ! . . ما معنى هذا الكلام .
— ح اقتلك يا يوسف . انا قلت لك اهو . قدامك اسبوع ولو ما جتش قول روحك يا رحمن يا رحيم .
— ح اقولها من دلوقت . . يا رحمن يا رحيم
— يعنى مش همك
— يا فردوس افهمينى . . انت معقدة الموضوع زيادة عن اللزوم . دكتور أو داية تخلصك من ده كله . وتخلصينا من المتاعب ووجع الدماغ .
دكتور وداية . شرفها . سلبها الوطواط اغلى ما عندها . . غير معقول . . متى واين ؟ . .
هبطت إلى الأرض . قضمت اسنانى . سقطت راسى . امتدت يدى إلى التراب تحتفنه وتسحقه .
دكتور وداية . . شرفها . لو علم عمى فإنه سيموت على الفور . اه . . ياليل بلا نهار . هممت ان انهض إلى الحشرة ابن الحشرة . تابعت الغضب المتصاعد بينهما .
حاولت ان تضربه بالكف ، امسك يدها .
— انسى الموضوع واهتدى با لله . فكرى فى مستقبلك ، ما تنكديش على روحك .
وانا بقى اللى بحذرك تبعتى لى تانى البت بنت الخبازة دى . لو جت لى تانى انا اللى ح اجرسك .
— انا مش ح اسكت يا يوسف ، ومش ممكن ح اهدا .
— اعلى ما فى خيلك اركبيه

— قدامك اسبوع وبعدها عمدة دجوى ح يتصرف

— سلام يا دوسة

مضى عنها وهو يضرب جلبابه بعصاه . بدا الكلب وكانه يدفع عنه ذبابة

بدت فردوس مثلى لا تجد قدرة على النهوض . تخدر الجسد . تفككت العظام . منتهى الانهيار . هكذا تكون الهزيمة .

افرغت يدى ما كان بها من التراب . أحسست بالاختناق . حاولت انتزاع انفاسى من صدرى المحطم .

سادت فترة صمت . انفجرت فردوس باكية . أمواج الألم فى صدرها تهدر فى عنف وتهزها فى قسوة .

هب نصفى الأعلى كان ثعبانا لدغنى . فكرت فى سرعة . هل أذهب إليها ؟ أخفف عنها آلامها حتى تستطيع التصرف ، أم انها ستغضب إذا وقعت عيناها علىّ ، هل ستشعر بالحرج والاهانة .

أى إهانة الآن ، وهى على هذه الحال . فماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .

أشفقت أن ينتبه لحالها غيرى فتكون الطامة .

فاض دمعها بغزارة . عصف نشيجها الدامى بكل ما تبقى من أعصابى .

نهضت واقتربت منها .

ذعرت . توقفت عن البكاء . ربت على ظهرها بحنان . عادت للبكاء فى حرقة وندم ، تنعى فى نفسها العجز والقهر .

حاولت أن امسح دموعها ، لكن ذلك كان يزيدها انهمارا .

★ ★ ★

أحسست فى هذه اللحظة أنى والدها واخوها والمسئول عنها .

مضيت معها لا أشغل بالى بشىء إلا بمحاولة تهدئتها ، ومطالبتها بالتفكير فى الله وحده ، فهو ولا شك يعرف ويرى وسوف يتصرف .

تركتها عند دارها وعدت لدارى . وقبل أن أبلغ الحارة كان « شهم » فى استقبالى . أسرع إلىّ وتمسح فى قدمى . كأنه يسألنى :

لماذا تأخرت ؟ . . أين كنت ؟ . .

دخلت الدار فسلمت على أمى « ترك » التى كانت تجلس وحيدة بجوار لمبة الجاز .

ألقيت بقطع الخبز لشهم . وكان واقفا عند عتبة الباب كما علمته . فمكانه

خارج الدار دائما لا داخله ، والكلب يعرف حدوده ولا يتجاوزها .
اما الانسان فلا يعرف حدوده .
القيت إليه بفخذ الدجاجة ليتعشى ويسهر . أما أنا فلم أذق طعم العشاء ولا النوم ، وكيف انام وقد حملت هذه المصيبة . هذه الكارثة التى لا نملك لها ردا ولا دفعا .
فردوس تحمل من الوطواط .
هامت نفسى تحدثنى طويلا . تطرق كل الأبواب .
— الوطواط لبس فى وشها . خده . قطع الوردة وداسها . هرسها ودفسها فى الطين . ياترى مين عارف غيرى . ما ظنش فيه حد غيرى .
— طب وانا ح اسكت .
— واعمل ايه . . أروح له .
— تروح له . تقوله ايه . . وباى حق تتكلم . وايه فايدة كلامك . ح يقولك اشرب من البحر انت وهيه . . جنت وبتترمى عليه . ليه الظلم يا ناس .
— طب مين اللى عنده الحل
— طبعا ربنا .
— إزاى
— مش شغلك . ده شغله هوه
— صحيح شغله . بس خايف فردوس تتبهدل . خايف عليها . مش لحمى . مش حبى .
— رجعت تانى تحن
— انا ما تغيرتش . انا زى مانا . طول عمرى بحبها . ولحد دلوقت فردوس فى نظرى طاهرة وبريئة ومسيره يوم ييجى يطلع فيه نهار . ساعتها ح تختفى كل الوطاويط .

★ ★ ★

لا أدرى لماذا أحسست فى هذه الليلة أن الأرض شابت وشاخت . ربما بسبب تصرفات البشر السخيفة .
ماذا تبقى يا رب بالتحديد ؟ . . أنا جاهل تماما لما تريد . ساعدنا . مد يدك إلينا . يبدو أن كلماتك المقدسة غير كافية كى تنقذنا من خطايانا الحتمية ، التى نتردى فيها كل دقيقة ، ونظل نؤكد إصرارنا على اقترافها فى كل وقت .
يا رب
كيف أطرق الأبواب المغلقة عليهم . رؤوسهم مغلقة إزائى ، وقلوبهم صم .

وارواحهم هائمة فى اثر الجشع والأغراض الدنية . يركبون إليها مراكب الزيف الأصفر .

ينام الكلب الآن ملء جفنيه ، بعد ان راى بعينيه الفراشة وهى تتوهج فى النار .

ما اكثر الوطاويط التى تعيش فى قريتنا وما اندر الشرفاء وما اضيق السبل امامهم كلما حاولوا الخروج ردتهم الوطاويط ، كلما حاولوا الانطلاق سجنوهم . . كلما حاولوا الطيران قصوا الأجنحة .

الجناة ليسوا غرباء ولكنهم من أهلها . . لا يفكرون إلا فى أنفسهم . . أن يغنموا وينعموا أما الشرفاء فبعيدا بعيدا عن النور . . وراء وراء ، حيث الطين والتخلف والعار .

بقيت على حالى أجمع وأطرح . أضرب وأقسم . أحارب أعداء وهميين وأتدرع بأسلحة لا وجود لها وأعدد الرغبات والتوقعات حتى فوجئت بالصباح يطلع وكعادتها . .

تصطبغ الدنيا بألوانها الكاذبة .

●●●

| ٥٥ |

هل كل من يحاول أن ينهش الحياة ، ويشوه الجمال يبدأ ناعما متلصصا ، وئيد الخطو . يتسرب الى بغيته فى سلاسة ، حتى إذا ما أصبح فى قلبها كشف وجهه ورفع علمه وأعلن بكل الضجيج سيطرته وتحكمه . .

نعم . . هذه عادة كل أعداء الحياة

ساعتها تصعب المقاومة . إذ الشر فى القلب والسهم فى الصميم فمن الذى يقاوم

هل تستطيع الشمس أن تصمد لجيوش الظلام التى تبدأ متسللة !

وعندما يشيخ الظلام هل يستطيع أن يشمخ بينما الشمس تصب اللهيب .

من الذى يقف فى مواجهة شىء

هل يصمد الانسان للمرض

هل يرفع رأسه فى وجه الموت الذى يسكن القبور

لندع جانبا هذه القوى الطبيعية المتصارعة التى يتضاءل الانسان أمامها ويتلاشى

فهل يمكن للمحب أن يصمد وطعنات الهجر والغدر تندس فى قلبه

فهل تقاومون أيها الفلاحون استغلال العمدة والوطواط وشيخ البلد

أنهم يصورون لكم الهزيمة قدرا ، وأن الفقر حظ ، وأن الجوع نصيب ، وأن كل الآفات قدر ، تخصص فيكم ولكم ، كما أن الحظ الحسن والقدر الطيب والنصيب الاكبر لهم . . فهل تقاومون

هل قاومت فردوس شباك الوطواط !

من يصمد فى وجه التيار ، فضلا عن أن يسبح ضده ،
المقاومة هى رمز الحياة
ومن لايقاوم ، يموت موتا مضاعفا أقسى من الموت الربانى الهادىء .
وانا ساقاوم
يارب ساعدنى كى لا أهزم
ساعدنى لأقف فى وجه الوطاويط ، مصاصى الدماء معدومى الضمير .

★ ★ ★

رنوت الى السماء وتنهدت . لاحت لى السماء رقيقة وديعة تنظر الى بحنان . ربتت على ظهرى ورأسى . قربتنى منها . احتوتنى . اقشعر بدنى من الحنان المحتشد . اغتسلت . تطهرت . أغمضت عينى . استرخت أعصابى ، كأنى ألبس رداء النوم بلهفة . حلمت . حلمت بالأمل والنور
أفقت فجأة على نداءات الناس ونباح الكلاب . تلفت حولى تذكرت أيامى وحالى . لمحت أوراقى الذابلة تذروها الريح . الشوارع معتمة . .
مر يومان وانا لا أفكر إلا فى فعل الوطواط الفظيع . لم أحفل بأى شىء يحدث بالبلد . لم أتابع أى نبأ . لم أشارك كعادتى فيما يحدث . أوقفت أعصابى ووقتى كله للتفكير فى الوطواط وفردوس .
كيف يمكن ياترى استعادة الشرف أو الانتقام . . أما الشرف فلا سبيل الى استعادته ، إذن فلا مفر من الانتقام ولكن كيف ؟ ولم يخطر ببال انسان مثلى ان يواجه مثل هذا الموقف يوما ما . . فالفكر كله فى العمل والخير والحب .
لكنها الوطاويط ، تحملك حملا كى تصبح وطواطا . .
وانه لعناء كبير وأى عناء أن يصبح الغزال خنزيرا
وإنه لعناء كبير أيضا أن يتحول الخنزير فجأة الى بلبل حائر ، أنا حائر مع طول الفكر والحيرة ، تبين لى أن أهم نقطة فى تكوين الانسان وأكثرها حساسية هى الشرف
من أجل الشرف يقتل الرجال النساء ، وتقتل النساء الرجال ، ويقتل الرجال الرجال . من أجله تمزق البيوت والقرى والمدن .
الشرف هو حياة الانسان ، بل ومماته أيضا . . ماضيه وحاضره ، نومه وسهده . صحته ومرضه
أيها الوطواط ماذا استطيع أن أفعل لك . وليس لفردوس غيرى .

فردوس بنت شيخ البلد . ذراع العمدة اليمنى واهم رجل بعده . واخت لرجال كبار ذوى حيثية ووزن فى البلد وخارج البلد . ومع ذلك فليس لها فى الحقيقة غير العبد الفقير .

فاخوتها بينهم فرقة تكاد تكون دائمة . وبسبب أمور تافهة .

وحتى بدون الخلافات والمنازعات . فهم متباعدون . كل منهم لاه عن غيره . يخوض فى مشكلاته . ويغوص فى أعماقه بحثا عن نفسه .

أبوها لايفكر الا فى زيادة أرضه وسيطرته . واخوها صلاح المحامى فى شغل عنهم بسبب عمله وزوجته وبنته . واخوها الكبير هندى لايفكر الا فى رضى أبيه محاولا الاستحواذ على الأرض . تساعده فى ذلك زوجة شيطانة وأولاد مدربون . واخوها جبريل لايشغله الا الأطباء الذين يتعين عليه الذهاب إليهم مع زوجته بحثا عن الانجاب أملا فى الذرية التى سترث الأرض .

أما عزيز فانه لايمت لهم بصلة . الا بالاسم ودخول الدار للنوم أو تناول الطعام . هائم فى عالم آخر . من صباح الإربعاء يسافر مباشرة من عمله الى القاهرة ويعود السبت صباحا الى عمله فى بنها وفى المساء الى البلدة .

يرتاد هناك دور المسرح والسينما . ويلتقى بأصدقاء له يختلفون عن أصدقاء القرية .

من الذى سيفكر فى فردوس ؟ . أنا . من المطعون . . أنا .

من الذى عليه أن يتحرك ؟ أنا . أنا . . أنا . .

وجريمة فردوس واحدة من جرائم وخطايا فى كفرنا كثيرة ولايمكن السكوت عليها . انشغل المسئولون فى كفرنا بمصالحهم الشخصية . فمضوا يتاجرون ويسرقون وينهبون ويرتشون . وتركوا كل انسان ليفعل مايشاء وهناك سمك كبير وسمك صغير . وطبعا سيأكل الكبير كل الصغير وان لم يأكله داسه وألقى به بعيدا عن شاطىء الحياة . إنها الحرية الجديدة . ان يفعل كل إنسان مايشاء . والبقاء للأقوى والأغنى المشكلة إذن ليست شرف فردوس ولكنها شرف البلد . لابد أن يصوب الانتقام إلى قلب العمدة وكل فريقه . لابد من هواء جديد ومنافذ جديدة . ولكن كيف ؟

أخذ الوطواط ماليس له . وهاهو يرميها نواة لاجدوى منها . أكلها لحما وشرفا . ورماها عظما تعافه الكلاب . من أجل فردوس ومن أجل الناس البسطاء لابد من القضاء عليه . لابد أن نتخلص من كل الوطاويط .

فلايفيد من كان مثل الوطواط الكلام الهادىء والنصح الجميل ، ولايرده عن غيه العفو أو اسلوب المودة والاقناع

لقد جرب الناس طويلا إمتصاص الشر والرضى به وقبوله ، محاولين احتواءه بطرق سلمية هادئة ، لكن هذه الطرق لم يكن لها من جدوى غير رسوخ قدم الشر وزيادة طغيانه ، وادراكه حجم منافسيه ، وضآلة شان المحيطين به

لابد من البندقية . بندقية من ! . . ضبه أو العسيلي أو أحد الخفراء . . ليست هذه البنادق كلها أمرا ميسورا

هل من وسيلة أخرى غيرها . الفأس مثلا . . أنها قاسية جدا فضلا عن أنها تتطلب ان تقترب تماما من الشخص المراد القضاء عليه وهذا امر صعب

يارب . . هانذا أفكر فى القتل . أفكر فيما يسمى شرا . . أحاربه فى الناس وأتيه ، أحتقرهم بسببه وارتكبه

ولكنى يارب انتقم للشرف المغتصب .

من تعود أن يفكر فى الخير والحب والسلام ، صعب أن يفكر مرة فى السلاح أو حتى فى الحذر والحيطة ، أو الاستعانه بالمكر والدهاء .

فى كل مرة وفى كل مناسبة يتعين علينا أن نختار بين متناقضات ، إما الكرامة مع الفقر ، أو العبودية مع الغنى .

الخير مع قلة الحيلة ، أم الشر مع القوة والسيطرة والنفوذ .

كثيرة جدا مفترقات الطرق ، وعلينا أن نختار . . وكيف نختار . . كثيرا ماتكون الكفة الراجحة ، تجاه اختيار معين .

الاختيار نفسه ليس لك . . انت مرغم

فهل انا إذا تراجعت عن الانتقام فهل أحتمل الصبر . . أبدا بل مستحيل . . الموت أهون

إذن لابد من السلاح . . والسلاح لايخرج عن خص ولعة . لابد من العودة إليهم وتقوية العلاقة بهم من جديد

ولكن الخوف كل الخوف ، أن يطول الطريق معهم ، ولا أستطيع الرجوع الى عشى . . عش الحمام الأبيض الذى يأمل فى الحياة والحب .

فى المساء توجهت الى خص ولعة . التقيت بمصيلحى الذى سبق أن ارتحت اليه عنهم . أوعزت اليه برغبتى فى تعلم استخدام البندقية . تحدثت طويلا إليه ، واستطلعت مزيدا من المعلومات عن وسائل الانتقام الأخرى وعن الوطواط وعاداته .

قبل مصيلحى ان يعلمنى اطلاق النار .
فى ليلة من الليالى اصطحبنى الى طريق طويل مهجور يفصل قريتنا عن القرية المجاورة
عرفنى اجزاء البندقية وكيف انزع خزانة الرصاص لتعميرها .
عرفت كيف اطلق الرصاص بعد التحكم الكامل والتدقيق ، ووضع الشخص المراد إصابته بالنسبة للبندقية ، فى حالة ما اذا كان ثابتا او متحركا
واطلقت بالفعل عدة رصاصات على أهداف متباينة ، حددها لى مصيلحى .
ونجحت نجاحا طيبا جدا بالنسبة لمبتدىء مثلى .
طاف بخيالى عشرات المرات منظر الوطواط ، وهو يسقط على الأرض ، بعد أن نفذت الى صدره رصاصاتى الغاضبة
رصاصات أناديها وتنادينى ، تحفزنى ضد الظلم والطغيان .
أسمع لها طنينا منذ أمد بعيد ، تتبدى معه صورة أمى وأبى وصورة فردوس وصورة زاهر وحامد سلامة وغيرهم من النماذج البشرية التى عانت فى قريتنا من ظلم الظالمين
أحداث كثيرة فى الماضى ، أريد أن أنساها وهى تلاحقنى فى الحاح .
اننى أرى الماضى بافضل مما أرى الحاضر ، وارى الماضى البعيد افضل من الماضى القريب ، ويلح على هذا الماضى ، واميل للفزع إليه والهروب من الحاضر السخيف الخالى من المعنى ومن الجمال .
ولكن مهما بلغت وقاحة الحاضر وسخافته فهو الأجدر باهتمامنا وتاملنا وفعلنا
مرت الأيام وانا انتظر الفرصة كى أعثر على السلاح والفرصة لاطلاقه .
انتظر بالليل والنهار ، وكل حواسى وأعصابى ومشاعرى ترقب الظروف المحيطة وتتامل الكون . الشوارع . الجدران ، تنظر فى عيون الناس وتفكر فيهم ماذا سيكون حالهم بعد أن أضرب ضربتى . . كأنى ساقوم بتغيير الكون كله فى ضربة واحدة .
عمل ضخم وهائل ذلك الذى أفكر فيه ، وانوى ان شاء الله الاقدام عليه وحدى اقضى الليل فى الحجرة أفكر وأحسب فى هدوء النتائج المتوقعة وغير المتوقعة . القريبة والبعيدة والصمت شامل ، وليس هناك من نبض فى الكون كله الا حفيف اجنحة البرد وهى ترف من حولى ، وتحاول ان تنفذ هاربة من تحت عقب الباب .

عدت مرة ومرة الى الخص . كانى أعود الى المدرسة لاتلقى مزيدا من العلم والمعرفة

مضيت انتظر الفرصة التى لم استطع ان اخلقها بيدى وفكرى . كل مافعلته انى تقدمت خطوات فى صداقتى بالعسيلى ورجاله . جالستهم . شربت معهم . سهرت الليل الى جوارهم . تحدثوا امامى عن أعمالهم الماضية بلا حرج أو حذر .

وثقوا بى وأغراهم بكمى بالوثوق أكثر . مثلى لايضر ولا ينفع .

بعد عدة أيام

فوجئت عند دخولى الخص . بولعة تجذبنى الى غرفتها الداخلية التى تنام فيها وتعد ايضا بها المشاريب

قالت بصوت كالفحيح وقد شملها الاضطراب . مما اقلقنى .

ــ إسمع ياقاسم . فيه حاجة ح تحصل النهاردة مش عايزاها تحصل .

هززت رأسى

ــ الشيخ إبراهيم راح يعزى فى كفر الحصة على حمارته . العسيلى كلف شرفنطح انه ينشه وهو راجع . وده أكيد طلب أحمد البطاوى .

ذعرت وجفلت

فانا أحب هذا الرجل . وقد سبق للبطاوى أن سم بهائمه . ولكن الرجل لم يعبأ . ولم يتوقف هو وابنه عن مساندة زوجة المرحوم سيد البطاوى .

قررت فى نفسى ان أحول بين شرفنطح وبين الشيخ .

قالت فى فزع :

ــ إيه الحل . انا مش عارفة اتصرف . انا ح اتجنن ، ماتعرفش انت طريقة

طاطات رأسى استسلاما . ولم أكشف عما نويته

جلست فى الركن وحدى . أحشد عزمى وأجمع شتات نفسى . وأرتب طريقة لافسد بها عمل الشيطان .

انا لن أستطيع منع الشيخ إبراهيم من المرور بالطريق الطويل المظلم من المحطة الى البلد . لأنه عنيد وإذا أخبره أحد بالخطة فسيقول :

ــ الله هو الحافظ . وارادته هى النافذة

الحل هو محاولة منع شرفنطح . وهو الآن مازال بداره وأعرفها . سيخرج منها قبل العشاء .

تابطت عصاتى المهيبة ، وقبل بيته كمنت فى الظلام خلف شجرة بجوارها زير . خرج وتبعته فى حذر ، وعندما ابتعد مسافة كافية عن بيته ، ووقف يشعل سيجارة ، دنوت منه فجاة وهويت على ظهره بعصاتى الغليظة ، فانكفا على وجهه ، وسقطت البندقية التى كانت مختفية فى المعطف تحت إبطة .

حاول أن يهم برأسه ، فضربته ضربة خفيفة . كانت كفيلة بان توقف حركته تماما ، فلم أرد قتله .

حملت بندقيته وأسرعت بها الى الغيط ، فاخفيتها فى الخص داخل جوال . عدت متمهلا . أكاد اتبختر فى مشيتى والليل رقيق وحالم . استنشق النسمات العاطرة . أملأ بها صدرى وأستحم

هل أذهب الى فردوس الآن لانبئها بالخبر . قررت العودة ال خص ولعة كان شرفنطح شخصا حقيرا بكل معانى الكلمة . كان جديرا بما تلقى على يدى . رأيت أن أبقى أكبر مدة ممكنة فى خص ولعة لأسمع الأخبار ، وأنصت لأول تجربة وأول خطوة على طريق الانتقام

جاء بعد العشاء بنحو ساعة من ينبىء بأن الشيخ ابراهيم يتناول العشاء فى بيته ، ولاخبر عن شرفنطح

همس العسيلى فى آذان أصحابه وهو ينهض ، بانه سيختفى مؤقتا عن عيون البطاوى وليبحث أحدهم عن شرفنطح ويعرف ماذا جرى ويبلغه .

انفض المولد مبكرا ، لكنى بقيت اتفرج على الفرحة فى عينى ولعة . قالت :

ــ فضلت أدعى لربنا من ساعة ماعرفت الخبر انه يحمى الراجل ويحفظه . . ده راجل كله خير وبركة . شجرة بتضلل على البلد الفقر دى . نقوم نموته بايدينا . الحمد لله ربنا دايما على الظالم . ربنا لايمكن ح يسيبنا من غير حد كبير ويانا . انت الليلة دى تسهر معايا . أنا مش ممكن أنام دلوقت . أنا مش متعودة أنام قبل الفجر

اشرت إليها بمعنى ان امى تنتظرنى . الحت وقبلت .

اعدت لى كوبا من الجنزبيل

مضت تحكى عن ذكرياتها وعن تجاربها وتضحك واضحك معها ، الضحك يعرى السعادة التى تجتاح قلبينا

قدمت لى الفول السودانى والبرتقال والعجوة ، والتهمت منها الكثير ، ثم نهضت وودعت . وانا أحس إحساسا نادرا بالراحة والرضى ، لم أحسه منذ وقت طويل

شعرت ان الليل مضيء ومبتهج ، ويود لو يوقظ الناس ، وينتزعهم من النوم والكساد والكسل ، ليرقصوا ويغنوا وينتعشوا ، فهذا ليس وقت النوم ولا الموت

عن بعد سمعت طرقات حصان جامح كدقات قلب واجف ، بعد لحظة مر بى يوسف الوطواط بحصانه الشهير مسرعا . كاد يدهمنى ، وأنا عنه ذاهل هزتنى طرقات الحصان وهجمته . ارتعدت وانكمشت روحى بلا سبب .

لم استطع ان اعود الى ما كنت فيه من صفاء . انقطع حبل انسجامى ولم اتمكن من مواصلة طريقى فى الليل بسلاسة .

أخذت افكر فى الوطواط . قضيتى الاساسية . متى نلتقى ؟ . . متى تشق رصاصاتى صدره ، ويرتاح القلب المقهور ، ويرتفع الرأس المنكس ويتحول العار الى إكليل من المجد والشرف

يمضى الوطواط فى الليل مجتاحا لايلوى على شىء ، ولايعبأ باحد فإلى أين يمضى وقد تجاوزت الحادية عشرة

لايسهر فى قريتنا أحد بعد التاسعة الا العسيلي ورجاله ، فالى أين يمضى الوطواط .

ماذا يحدث لو أحضرت البندقية وهى منى الآن قريبة ، وانتظرته ! . .

أعدت السؤال على نفسى عشر مرات ، دون أن أجيب بثقة كاملة . كنت اشعر فى قرارة نفسى أنى غير مؤهل الليلة لمثل هذا العمل .

لابد أن أعرف أين يذهب ، مضيت فى الطريق الذى شقه بحصانه ، وهو طريق وحيد يؤدى الى محطة السكة الحديد ، ويمتد كمسيرة ثلث ساعة سيرا على الأقدام

بلغت المحطة . جلست هناك أترقب ظهوره ، لكنه لم يظهر وسئمت البقاء وحدى فعدت

قبل أن أبلغ خص ولعة . . عادت الطرقات المجنونة

لحقنى الوطواط مسرعا يدق الارض ، كأنه سيهجم على القرية النائمة فيدهمها باقدامه الثقيلة .

فى ثياب النوم خرجت ولعه أمام خصها . رأتنى . دهشت

— الله انت لسه ماروحتش

أشرت لها بمعنى ، أنى كنت أشعر ببعض الضيق ، والحمد لله أحسن ، سألتها أين كان يوسف . قالت انه أحيانا يذهب الى جنينة عبد القوى واخوته

يسهر معهم . . دعتنى للدخول والحت ورفضت ، جذبتنى من ذراعى

— تعالى . تعالى انت باين عليك ح تبات هنا

اقشعر بدنى من الحاحها . رجوتها أن تتركنى لأنى مرهق .

ودعتها وعدت الى الدار فيما يشبه العدو . ونمت على الفور نوما عميقا .

• • •



١٣

كان اليوم التالى ثقيلا جدا . تتلكأ دقائقه وثوانيه بشكل لم يسبق لى الشعور به ، ولا فى أشد أيام الصيام حرارة .

كنت أتعجل مروره ليأتى الليل ، وألتقى باللحظة التى يبتلع فيها يوسف رصاصات البندقية . كنت أتلهف لانقاذ روحى وروح فردوس وأرواح الفلاحين من شخص لا يعرف الرحمة . ولا يخشى ملامة الناس ولا يرتدع لكبير . ولا يدرك قدرة الخالق على سحقه يوما ما . .

كنت أتوق إلى تلك اللحظات التى يسقط فيها الوطواط . وينعم الناس بالراحة . بعد أن عاشوا عمرا مديدا فى قلق وخوف وسخط لا يستطيعون البوح به أو التعبير عنه ولو تلميحا .

هل يمكن أن أكون نافعا بشكل أو بآخر . . ألا يجب أن يسمع صوتى الجميع بعد طول صمت . ألا يتعين عليهم أن يعرفوا أنى لست كما يتصورون . قطعة من الحجر أو الحديد ، أو صنفا من أصناف البهائم .

ماذا أقول ؟ . . هل أقتله من أجلى أو من أجلهم ، أو من أجل فردوس ، أو من أجلنا جميعا . .

عند الظهر اشتقت أن أرى البندقية وأتحسسها على مهل . احتضنها وأجرب امتدادها بين ذراعى . ألمسها بشفتى وأذوق طعمها ، أحدق فيها وأسألها . فربما تجيبنى . ذلك المخلوق العجيب الذى لا يدين بالولاء لأحد إلا لعزرائيل .

احصيت الرصاصات فوجدتها ستا . رضيت بها فهى تكفى لقتله ، وإن كانت ستون رصاصة فى قلبه لا ترضينى .

فكرت ان اجربها فاطلق رصاصة على هدف ما لكن الشمس فوق راسى ، والنور يملأ الدنيا والناس تدب فى كل مكان ، والابصار مشرعة والرؤية واضحة . اخفيتها . جلست افكر فى الوطواط واللحظة المقدسة . اللحظة الأسطورية الخرافية . اللحظة التى سيتحدد بها كل شىء . .

اما الحلال وإما الحرام . إما الخير واما الشر . إما الحياة واما الموت . إما الأمن وإما القلق الدائم والخوف . اما السعادة واما الشقاء . إما واما . اليست حقا لحظة أسطورية خرافية .

★ ★ ★

عدت أفكر فى الرصاص والضجة التى سيثيرها . وطاف خيالى يبحث عن بديل . . أفكر فى ذلك للمرة الألف . هل انا متردد ام خائف . . أم . .

لم اجد حلا ، ولم اتمكن من وضع يدى على وسيلة اكيدة . فلا أمل اذن إلا فى الرصاص وبالرصاص . .

بعد العاشرة مساء اخفيت البندقية تحت ثيابى ومضيت إلى الساقية المواجهة للكوبرى . قبعت إلى ان يمر الوطواط . طال الإنتظار وامتد حتى مللت . احتشد فى صدرى الغضب ، ورجعت بعد منتصف الليل .

فى اليوم التالى اطلقت اذنى عند من يعرفون أخباره . علمت أنه ذهب إلى القاهرة وسيأتى غدا . .

فى العاشرة من مساء اليوم التالى قبعت فى مكمنى عند الساقية ، ومعى حبل . قضيت النهار اجدله ، يمتد لعشرة أمتار .

فى الحادية عشرة . تقريبا تسربت إلى اذنى طرقات الحصان واهنة فى البداية ، وسرعان ما تصاعدت وتوهجت . فارت كاللهيب فى اذنى وهى تقترب . لم اره . كنت استقبل باذنى الطرقات التى تدك الأرض وتشتعل وتفور ، كالماء الذى يغلى انصبت فى صدرى . .

تنفست بعمق استعدادا للعمل . .

فى شجرة الكافور علقت الحبل على ارتفاع مترين ونصف المتر تقريبا ، وعدت إلى مكانى . اتخذت وجهتى جنينة عبد القوى . رغم انها على بعد ربع كيلو متر ، فيمكننى رؤيته حاملا المصباح ليودع الوطواط ، ساعتها أخطو الخطوة التالية . . .



إلى آخرها فتحت عينى أمد بصرى إلى بعيد . لا أسمح لهما بالانغلاق .

أخيرا أطل النور

قفزت ممسكا بالحبل المعلق بالشجرة . جذبت الحبل بأقصى قوتى ، إلى الشجرة الأخرى على يسار الطريق . حتى إذا أصبح مشدودا تماما ، كأنه قضيب من حديد ربطته إلى الشجرة على ارتفاع مترين ونصف المتر . تأكدت أن الحبل الذى يعبر الطريق قادر على أن يخلعه من فوق الحصان المسرع امتد الوقت بسخافة وبلا مبرر ، كنت أتوقع أن يصل خلال دقائق لكنه لم يظهر . ولم أسمع طرقات الأقدام الجامحة على الرغم من اختفاء الضوء

أخيرا بلغتنى الطرقات متهادية تتراقص . دق قلبى بعنف ، لأن معنى ذلك أن يوسف ستكون لديه الفرصة كى يرى الحبل الممتد بعرض الطريق

هممت أن أصعد لأفك الحبل .

عدت فتخليت عن الفكرة . لأنه حين يرى الحبل ويتساءل ما السر فى تعليقه هكذا . فبإمكانى ساعتها وفى يسر أن أصب انتقامى فى تأن وروية

أسرعت بالبندقية . فعبرت الترعة . وقبعت إلى جوار الساقية .

جاء الوطواط متهاديا يصفر فى انسجام . وعينى وعين البندقية عليه ، إلى أن دنا ووقف يحدق فى الحبل المواجه لصدره تماما ، فأطلقت فى هذا الصدر رصاصة ورصاصة وثالثة

سقط وتركت البندقية مكانى . قفزت عدة قفزات فكنت بين مزارعى . سرت هادئا واثقا . بلغت الخص فتجرعت قلة الماء بكاملها . قطفت بعض ثمار البرتقال . مضيت أكل دون أدنى إحساس بالمذاق ، لكنه مضغ ونهش بالأسنان . وفرصة للتأمل والتقاط الأنفاس . . بعدها راحة . . راحة غير عادية . لم أذق طعمها من قبل ولن أذوق طعمها الآن . ولكن حينما تجنى الثمار .

لحظات قليلة وسمعت الزعيق والصراخ

— الحقوا يارجاله . . الحقوا يا أهل البلد . . يوسف انطخ يارجالة . .

دبت الحركة فى البلد كأنه النهار رجع إلى الدنيا فجأة ، ومهما كنت بعيدا تبلغك النداءات وتسمع هرولة الأقدام وولولة النساء

لم استطع البقاء فتسللت إلى الكفر

ظهرت وسط الناس . استفسر عما حدث . عرفت أن يوسف ابن العمدة قد قتل . عدت إلى الدار

راودتني نفسي كي امر بدار فردوس فاوقظها وابلغها البشرى الرائعة بشرى الانتقام من المغتصب الطاغية .

بشرى التخلص من اسوأ من عرف البلد ، لكنى لم أتحمس للفكرة ، ولم اضمن الحديث إليها وحدها في هذه الساعة المتاخرة من الليل .

★ ★ ★

نهضت من نومى فزعا عندما لمستنى امى ، فدهشت لحالتى وكنت أصحو من قبل في سكون وسلام . اذن فقد طلع النهار . النهار الجديد

قالت : عرفت اللى جرى

هززت رأسى نفيا

قالت : قتلوا يوسف بن العمدة

رسمت على وجهى ملامح الدهشة ولذت بالصمت لحظات كانى أحاول اكتشاف حلاوة الخبر .

لطمت وجهى بالماء ، أسرعت إلى فردوس لأنبئها بالخبر ، أدركت من اضطرابها انها عرفت . طلبت إليها ان توافينى في الغيط لأمر هام .

جاءت

بكل فخر اعترفت لها أنى أنا الذى قتلت الوطواط فجنت . نعم جنت لأول مرة ارى شخصا مجنونا . مجنونا بحق . الصراخ وشد الشعر . فتح العينين والفم والأنف . لعاب . كلام بلا معنى . عبارات من الشمال واليمين .

— يانهار اسود . انت ازاى . لا . مش ممكن . انت ليه . آه يانا غرقت في البحر . ليه . ده بحر كبير غويط . واللى ينزل ما يرجعشى .

لا ضعت خلاص . ضعت

افترشت الأرض واحتفنت من التراب . أهالته على راسها . اختلط بدموعها وتشعث شعرها وبدا منظرها شائها عجيبا

لم املك معه وانا في قمة ارتباكى ودهشتى ، إلا ان أشير إليها بمعنى :

— انا الغلطان . حقك على . انا عملت كده علشانك

— علشانى إيه وبتاع ايه

لطمت خديها . . طالبتها بالهدوء

— اهدا . . اهدا إزاى ، تموته وتقوللى اهدا

واشير إليها بأنه اهانها ولا بد انه يستحق

— وانت مالك .. كان كل شيء ح يتصلح والميه تعود لمجاريها

كان يجب ان تفهم البلهاء انى أعرف ما كان يدور فى خيالها ، ألم تفكر فى الانتقام منه والتنكيل به ليدفع الثمن . غريبا حقا إذا لم تكن قد فكرت فى هذا .

تنهدت . ومضت فى أسى تحدث نفسها ، وتوجه أشد السباب لحظها التعس

فردوس

ترى ماذا ستفعل الآن . صحيح أن فى موته راحة للجميع . لكن فردوس غير مستفيدة . علىٰ العكس فقد اضيرت .

لديها الحق

لو كان حيا . لكان من الممكن أن تواصل الحاحها عليه ، وقد تشكوه لأبيه ، كان بوسعها أن تفعل أى شيء

. لكن أن يموت ! . حقا انه إشكال . فمن والد ابنه ؟ ومن صاحب الجنين ؟ . من الذى فعل هذا ؟ هل ستقول ؟ أنه هذا الذى مات . لن يصدقها احد ، وإذا صدقوا فإنهم بهذا يمتلكون الدليل على مسئوليتها فى قتله .

كانت حانقة عليه حقا . لكنى الآن أرى بجلاء انها لم تكن تريده أن يموت . كانت تريده أن يبقى حيا . لأن بقلبها ما زالت هناك شمعة من شموع حبه تنير صدرها ، وهناك ما يختلج فى بطنها منه ، وهو نتاج لحظة ضارية من لحظات السعادة العاطفية التى عاشتها معه ، وتذوقت حلاوتها فى وجوده ، ولا يمكن أن تنكر ذلك .

أما أن يموت ويتركها هكذا ضائعة ، بحملها الصغير الذى سيكبر بسرعة ، ويواجه الحياة ، ويواجه الناس بالألسنة .

لا . . .

لم يكن ليموت . لقد قام جدار كثيف بينه وبينها ، وهو فى حياة وهى فى حياة . هو فى عالم وهى فى عالم . لا أمل فى أن يكون هناك ثمة إتصال بينهما أو حتى حوار .

من الذى سيحمل معها ما فى بطنها . أبوها . اخوتها . انهم سيكونون الموت الذى يترصدها . سيكونون العذاب الذى لا ينتهى .

★ ★ ★

لعنة الله على الحب . لعنة الله على الشباب . لعنة الله على الألسنة . لعنة الله على الموت . لعنة الله على .

علمت منها فيما بعد .انها من شدة الغضب وعنفوان الثورة ، ذهبت إلى المحقق الذى بدا بحثه على الفور فى دوار العمدة . وبعد أن حملتها قدماها إلى الدوار ، وهمت بالدخول ، صور لها خيالها المنزعج صورتى وانا مشنوق وبقايا الدموع فى عينى ، فتوقفت لترقب الصراع الذى نشب بينها وبين نفسها .

ماذا يفيد يوسف من شنق قاسم ؟ وماذا تفيد هى من شنق قاسم ؟ وماذا يفيد الجنين ؟ . . هل سينقذ سمعتها شنق قاسم او سجنه

عادت .

عادت لتكتوى بنار عزلتها ، وقلقها وحظها التعس .

عادت لتنطوى على نفسها ، كما فعلت بعد آخر لقاء مع يوسف .

مضت تعد الأيام وترقب الأحداث ، تحاول أن تكون دائما فى منتهى اليقظة والوعى بنفسها ، حتى لا تداهمها حالة ما تنبه إليها من حولها فيعرفون أنها حامل

سيكون السؤال دائما . . من ابوه ! . . من أبوه ؟

● ● ●

١٣

تمكنت المباحث بسهولة من التعرف على قاتل الوطواط من بندقيته التى وجدت عند الساقية ، ذهبوا إليه فى داره ، فحملوه حملا من زوجته الغنية الشمطاء ، إقتادوه إلى المركز ، وبقى سجينا على ذمة التحقيق .

سعت زوجته إلى صلاح البنهاوى (ابن عمى) المحامى وشقيق فردوس للدفاع عنه ، لكنه رفض مجاملة للعمدة الذى اعتكف حزينا تعسا .

لجات إلى غيره وابدت استعدادا لا ينتهى لتبرئته ، لانها متاكدة حسب اقوالها من براءة شرفنطح ، الذى كان معها فى هذه الليلة بكاملها ولم يذهب كعادته إلى خص ولعة .

لم اشعر بالراحة لان عين البوليس اخطاتنى ، وغفلت عنى ، ولم يحملها إلى اثر من آثارى ، واخذوا بدلا منى رجلا بريئا من دم يوسف ، لكنه ليس بريئا من دماء غيره .

لم اشعر بالرضى ، لان مشكلة فردوس مازالت قائمة ، بل زادتها فعلتى سوءا .

نسيت مع الايام موضوع يوسف وشرفنطح وسير القضية ، وظل هى كله التفكير فى فردوس .

احاول تصور حالها فى بيت ابيها ، وحالها بعد ان يعرف الناس واهلها حكايتها .

وبينما كنت اجلس عصرا امام الدار مشغولا بفردوس يذهب بى التفكير فى مصيرها مذاهب شتى ، إذا بفكرة مفاجئة تطل من راسى وتلح .

ماذا لو اصارح فردوس برغبتى فى الزواج منها .

لم يسبق لى ان ابلغتها برغبتى هذه .وارى الآن ضرورة ان اكشف لها عن مشاعرى التى طال كتمانها ، ثم إن الظروف الآن مناسبة ، ومناسبة جدا . على الأقل لها .

انا لا يهمنى ما سيقال عنى ، او عن زواجى بها ، ولكن ما يهمنى حقا ان يستر الله عرضها ، لانها فى نظرى وبرغم ما حدث بريئة وطاهرة .

كل ما هنالك ان قلبها تولى قيادتها ، فانصتت لمعسول الكلمات ، ولم يشفق الوطواط على مستقبلها ، ولم يابه لطيبتها ، ولم يقابل حسن نيتها وصفاء سريرتها وصدق مشاعرها ، بحسن السلوك وشرف الكلمة ونبل الاحساس .

خائن . والخائن يخون دون ان يدرى ، والسارق يسرق حتى لو لم ينو السرقة .

لا اظنها ترفض طلبى . واثق انها تكن لى مشاعر طيبة ، لانى صديق الطفولة وشريك المأساة وبئر الأسرار .

اخشى ان توافق لانها مضطرة . مرغمة على الاختفاء فى احضان زوج بدلا من الفضيحة ، وظل رجل ولا ظل حائط .

لا . لا اظن .

إنها إن شاء الله ستوافق راغبة وراضية . وللسببين . الحب والقدر . لكن اخوتها وعمى سيرفضون بالقطع ، ورغم ذلك فيجب ان احصل على موافقتها فلو رضيت . فسوف تتحداهم من أجلى .

هى اولا .

قمت من فورى ولبست أثمن ثيابى . وبدوت فى احسن صورة وسعيت إليها .

فى ركن من دارهم دعوتها وسالتها . كان بيننا ابن اخيها هندى .

اشرت إليها بما تفهم منه اننى اود الارتباط بها . شردت . نظرت إلى ولكنها غائبة عنى .

فى قهر وضعف هزت راسها بالنفى . سالتها يدى : لماذا ؟

هزت راسها نفيا .

امسكت ذراعها ، فاحنت راسها واشاحت بعيدا بوجهها ، ويبدو ان عينيها اغرورقا بالدمع ، لانها اختطفت ذراعها منى وهى تقول :

— لا يا قاسم . لا .

اسرعت إلى حجرتها . بلغنى نحيبها وانين حرقتها وثورة روحها ، وقفت برهة مشدوها .

استعدت فى رأسى صورتها وهى تهز رأسها وتقول : لا يا قاسم لا يا قاسم لا . .

هكذا بسرعة وبلا تفكير لا يا قاسم لا .

خرجت من الدار لا أعرف وجهتى . صدرى يعلو ويهبط ككير الحداد .

تحجر فى قلبها نهر الحب . . الذى كان يتدفق بالحياة والأمل . غامرا بالبهجة والسرور .

الآن ومن أجلى تحجر .

إلى هذه الدرجة أنا لا أصلح لشىء . إلى هذه الدرجة لا يعترف بى أحد .

لماذا يا فردوس لا تنظرى إلى . . لا أحد يرانى إذا لم تقع عينك على . .

آه .

آه

سمعت فجأة صوتا ينادينى . فكان عزيز يجلس على أحد الأكوام مع محمد بن عطية أبو الريش . سمعت محمد يقول له

— يا أخى سيبه .

رفضت الجلوس معهما . أشرت بأنى متجه إلى مشوار . ألح عزيز . دنوت منهما - إيه الشياكة . دى . . على فين كده .

— ......

— اقعد . . والله لانت قاعد

أخيرا قعدت

التفت عزيز إلى محمد وقال له : هيه وبعدين

نظر محمد إلى وقال : بعدين بقى

قال له عيزيز : يا عم قول هو انت مش عارف قاسم

صمت محمد لحظة ثم قال :

المهم . . ما جتش . ومرة ثانية وعدتنى وما جتش . . جننتنى .

قال عزيز :

— وما حاولتش تتأكد من شعورها ناحيتك

— انا مش فاهم حاجة . قلبها مش عارف حكايته إيه ، معمول من إيه .

— قلوب البنات . ماتعرفلهاش أصل . ماتعرفلهاش سكة . ممكن معمولة من الجنان . من الجشع . مسقية بمية من الجنة فى عروق تفاح .

— شىء غريب

— انا اعرف ان اجسامهم معمولة من مهلبية ، من قلوب عاشقة ، من حنان ، من احلى الأنسام ، من عيون القطط والغزلان . .

— بس قلوبهم مش عارف معمولة من إيه .

— تلقاها معاك وتميل لغيرك ، تلقى عينيها بتقولك ، مفيش منك وقلبها مش وياك ، عصفور تايه بين الأغصان ، بيدور على فرع يرسى عليه .

— قلوب البنات عصافير .

— وانت لازم تكون فرع مش شبكة ، لازم تقف كده لوحدك ولا تنطقش . ما تجريش وراها وتحاول تقفشها ، لا . .

— وبعدين .

— لما تكون فرع هى من طول جريانها وطيرانها ح تيجى فى يوم وترتاح على كتافك .

واذا ما جتش

— خلاص ، دوب عذابك واشربه ، اكتم فى قلبك ودارى جرحك ، قلب البنت ما تحاولش تعرفه . . ولو حاولت ح تتعب نفسك ويضيع عمرك من غير ما تدرى ، وتبص تلاقى نفسك قدام الفشل ، وانت والخيبة أصحاب .

اعجبنى الحديث وكنت اود البقاء لكنى كنت كالبالون الذى امتلأ بالهواء . ونفخه اخرى سينفجر .

استاذنت فى الانصراف .

فى صباح اليوم التالى قالت لى أمى : تعالى على الغدا . . عاملين لك صينية رقاق من اللى بتحبها .

احسست فجاة بالجوع ، وبرغبتى الشديدة فى التهام دجاجتين .

بعد الظهر عدت .

غرفت اول ملعقة . وقبل ان تبلغ فمى . سمعت صراخا عاليا ونداءات اسرعت بالخروج .

سمعت الأولاد يهتفون : فردوس غرقت

الأولاد اول مصادر الاعلان .

اندفعت بكل ما اوتيت من قوة وخفة فى اتجاه النهر ، لكن الناس قابلونى وهم يحملونها . ووصل قبلى هندى ، وشدها منهم بعنف والقى بها إلى الأرض . بدرت عنها بعض الحركة . إذن فقد انقذوها . الحمد الله .

انتحار فردوس

بقسوة جذبها هندى من ذراعها . دنوت منه . دفعته دفعة قوية . القيته على الأرض .

حملتها وانا فى منتهى التوتر . جسدى مستنفر كله ومستفز . احس انى قادر ومستعد لأضرب عشرة رجال .

هكذا اعلنت رايها فردوس بوضوح فى شخصى المسكين . رضيت بالانتحار ولم ترض الزواج بى . ياه . . ماذا بعد هذا التصريح . .

اتخذت طريقى فى اناة والناس كلها حولى ترنو للفتاة مصفرة الوجه . شعرت - رغم الطعنة الأخيرة فى صدرى - انى المسئول عن فردوس . . انا ابوها واخوها . . أما هذا الذى يجذبها ويلقى بها إلى الأرض . فهو أخ بالاسم فقط ويسعى للحفاظ على ماء وجهه بين الناس . . لكن الأعماق لا يدريها ولا يعرف كيف يدافع عنها . يهمه فقط كلام الناس .

اتجهت إلى دارنا . وغضب هندى وزعق فى وسبنى . جذبنى وفردوس فى اتجاه دارهم . دفعته بمرفقى فى صدره . وحدقت فيه شذرا . تخلى عن ذراعى وغاب عن وجهى .

وضعت فردوس على الفراش . طلبت من زوجة عبد السلام ان تصنع لها حلبة ساخنة . ومن امى ان تجلس إلى جوارها وتشممها البصل وتدلك لها صدرها وساقيها ولا تسالها عن شىء .

كادت الطرقات تحطم الباب . فتحت الباب . أنتصب أمامى هندى بالبندقية . التف حوله الناس . ليسوا مؤيدين ولكنهم متفرجون . طلبت إليه ان يبتعد وإلا قطعت راسه بالفاس .

فجاة لم اعد احفل بشىء . كل الناس عندى سواء . . كلهم شر وكره وحقد والتخلص منهم افضل . . لا . . لا . . لا . . انهم لا يصلحون . . البلد كلها تحتاج إلى تغيير كامل . من الراس إلى القدم . . لا . . بل الراس اولا .

دفعنى جانبا . واراد ان يقتحم الدار . اشرت إلى شهم فهجم عليه ولم يخلصه منه إلا ندائى عليه بالتوقف .

جاء شيخ البلد والشيخ فرج . امرانى بتسليمهما فردوس حقنا للدماء . رفضت .

اعد هندى بندقيته . اشرت إلى شهم فهجم عيه . . جر الشيخ فرج هندى . ومضى فى إثرهما شيخ البلد والناس .

من الشتائم التى كالها هندى لفردوس . فهمت انه عرف . تهاويت فى مكانى

افكر . إلى هذا الحد انا ناقص . إلى هذه الدرجة انا لا اصلح ان اكون رجلا . رغم صمتي وعقلي ومالي واخلاقي .

الانى بلا لسان . اهذا هو م اينقصنى . وهذا ما يكتمل به غير وراء الباب .

فرشت وقبعت . وشهم امام الباب يحرسه .

مسهدا . حائرا . قلقا . مغتاظا . اشعر برغبة في التدمير . كان على ان احطم راس هندي بالفاس مباشرة ودون تفكير . كفاني تفكير . كفاني صبر على تصرفات الناس واخطائهم وزيفهم .

كل حياتي تفكير وتامل وصمت . حان الحين كي انفجر .

فهل استطيع ان امحو الشر . وحدى ؟

— وباى شيء ابدا .

ما الذى يمكن ان يدفع كل هذا الشر . ما الذى يمكنه ان ينزعه من النفوس كان يمكن للحب ان يفعل ذلك . لكنه غير موجود . والموجود منه مزيف . مغشوش عبث به العابثون . حب صورى لا جدوى منه .

اخيرا نمت .

لم يكن نوما ساكنا مطمئنا . لكنه كان بركانا عنيفا ثائرا وبحرا هادرا هائجا .

حلمت حلما غريبا وفي الوقت ذاته لم اعجب له .

اكبر حلم حلمته . رغم كثرة احلامي . حلمت من قبل بحرق خص ولعة ولكني اليوم حلمت بحرق الكفر كله . نعم كله . سكبت عليه الجاز . اشعلت النار قبل الفجر . ومع اشتعال النار وتهدم المنازل واحتراق الاسقف وامتداد اللهيب . شعرت بالفرحة . وامتلات بطاقة غريبة . وجدت نفسى اقول بصوت مرتفع :

— الحمد لك يارب . خلصت الدنيا من الشر .

نطقت . بصوت خشن متقطع . كحبل متاكل قديم .

اخيرا نطقت .

وجاء الشيخ فرج من اقصى القرية خارجا من عباءات النار . جلس إلى جوارى واخذ يتلو ايات لم استمع إليها بجلاء .

وانا ارنو للنار المشتعلة . الافق كله نار ملتهبة . متعددة الالوان . تطقطق فيها الواح الخشب واعواد الحطب . وتتناهى إلى اصوات السقوط والصراخ وطلب الغوث .

فجاة بدات ابكى وبين انات النحيب كنت اتحدث إلى الشيخ فرج عن أمى وعن فردوس .

والشيخ فرج يسمعنى مبهورا بحكمة الله التى انطقتنى ، وقد استقام صوتى وبدا لى جميلا مؤثرا . . احلى من كل الأصوات التى سمعتها .

نبح الكلب فاستيقظت .

اصخت السمع . اقدام تقترب . فتحت الباب وبحلقت فى الظلام كان الشيخ فرج . مددت له يدى داعيا إياه للدخول . رفض . قال :

— قبل ان اذهب للصلاة ، جيت لك . لا تركب راسك . بنت عمك لها اب واخوة . قبل الصبح تروحها . انا مشيتهم امبارح عشان الموضوع يتلم والناس بتحب الفرجة .

هززت راسى موافقا وانا اتابع التامل فى حلمى

وعجبت . الشيخ فرج هو الوحيد الذى مازال حيا بعد النار . لتذهب فردوس او لتبق . لم يعد يهمنى . انا اعيش حلمى فقط ، انه ليس حلما انه على ما يبدو رؤيا . . امر من الله ان افعل ، سانفذ الحلم وليحدث ما يحدث يجب ان تلتهم النار هذا الكفر اللعين .

مضى الشيخ فرج .

النار . . الكفر . . النار .

خاتمة معقولة لحياة تعسة ، ذاق الجميع طعمها . لقد حانت النهاية لكفرنا البائس .

غدت قريتنا كامراة عجوز ، تتشح بخرقها الحزينة ، تكسرت منها العظام ، شاخت وشاهت . تكورت على الطوار ، تمد الأيدى . تتسول كلمة عطف . بينما الكل يجرى ويتقدم ، وهى تذوى وتذبل . .

نحن جميعا بقصد او بغير قصد جعلنا منها تلك البائسة العجوز . . كلنا قام بدوره كى يمتص منها الرحيق ، ويضيع منها الشباب . . لقد حانت النهاية .

استيقظت امى فجاة وانا . . ارنو للنار المتلالئة . اتامل القرية وهى تحترق سالتنى :

— ح تعمل إيه يا بنى ؟

قلت لها بالاشارة : ح اروحها .

قالت : احسن . هم حرين فى اولادهم .

النار . النار هى كل شىء . هى الحل . هى البداية والنهاية . نهضت وهممت بالخروج لابلغ جبريل اخوها او ابوها ليحضر فيصطحبها إذ انى متوجه إلى الغيط .

سمعت صوتا واهنا يناديني . . من .

إنه صوت فردوس . . توجهت إليها . . ما الذى ايقظها الآن . لعلها الآن افضل . .

امسكت يدى . . اقشعر بدنى . . نظرت إلى . . قالت

— ح افضل هنا .

استفسرت .

— مش ح أروح . . انا ح افضل وياك

ارتعدت . شعرت بالبرد الشديد . وضعت على يدها راحتى . لعل بها حمى . كانت بالفعل دافئة . . لا . . كانت طبيعية . يدها الطرية في يدى . .

ماذا قالت . لم اسمع . . لم افهم . .

قالت :

— انا بحبك يا قاسم .

انحنيت .

على ركبتى ركعت . قبلت وجهها بعينى ، تاملتها طويلا . كانت تبتسم . تبتسم فى شحوب . ابتسامة الرضا والاطمئنان .

إذن فلن تذهب فردوس إلى اهلها ، وهى تحبنى . . لا يمكن ان تقول ذلك إلا حقا . . هكذا قال عزيز . . إنها صادقة ، بدليل انها اقدمت على الانتحار حتى لا تتزوجنى مضطرة . لعلها الآن ادركت كم احبها .

إنها تكبنى إذن . . الحب موجود . الخير موجود . . ليس المهم ان اتكلم . المهم ان اشعر واعمل . لا داعى إذن للنار . الخير موجود والشر موجود . ولكن الحب يكفى . . وحده يكفى .

بنها فى يناير ١٩٧٩

ميّت عصري



كيف تكتشف لجنة الجرد المفاجىء ان لديه عجزا فى عهدته المالية وقدره ١٤٢,٦٥٠ جنيه .

شىء يقرب من المستحيل ، لقد عرف الجميع عنه دقته وحساسيته للنقود ، كأمينخزانة قديم ، أكثر من عشرين عاما وهو بهذه الحجرة ، وأمام هذه الخزانة ومن هذه النافذة الصغيرة يصرف فى الشهر للموظفين وغيرهم مايقرب من ربع مليون جنيه ، ومع ذلك لم يحدث أن فقد مليما واحدا .

وهذه الأيام بالذات تشهد بأن حركة النقد الوارد والمنصرف محدودة إذاأصبحت الهيئة تعتمد على الشيكات أكثر من النقدية فى صرف مستحقات المتعاملين معها فكيف يحدث هذا العجز ؟ .

المبلغ يبدو تافها لايخيف . ولا يرهقه كثيرا إذا اضطر لدفعه ولو على شهور . . لكن القضية بالنسبة له ليست حجم المبلغ إنما الكرامة . تاريخه فى الهيئة . . السمعة والكفاءة .

بذل جهدا كبيرا لاعتصار ذاكرته التى يعتقد الآن انه فقدها . لم يتذكر اى شىء . احس بالعجز عن التفكير . بل احس أيضا ان أجهزته لم تعد تعمل ومؤكد ان قلبه الآن متوقف وجهازه الهضمى متعطل . . كل شىء مات بداخله .

صعد درجات السلم وهو يفكر بأخر ماتبقى فى رأسه من أعصاب . . دخل الشقة . وقعت عيناه على التليفزيون . . ووقعت أعين التليفزيون عليه . . ألفى نفسه يتجه ناحيته .

أدار المفتاح . . نطق التليفزيون .

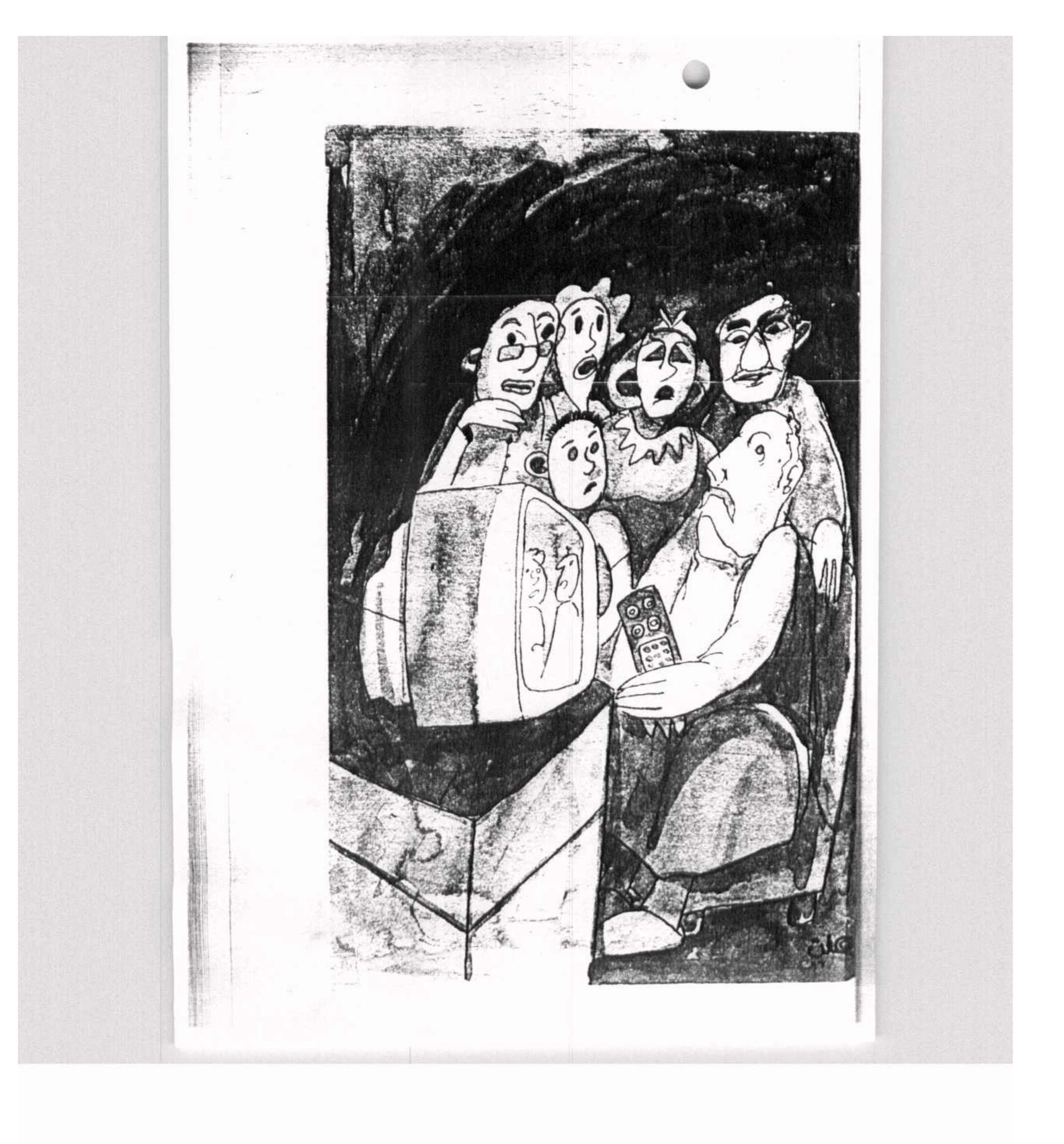
●●●

كانت الشقة سابحة فى السكون . دوى فيها الصوت الخافت والضوء الباهت . نسى الرجل كل شىء . وكان رأسه الذى يحمله دائما فوق كتفيه قد استبدل برأس أخر خاو تماما ، لايدرى شيئا عن أى شىء .

تأمل بكل اهتمام حركات الراقصة المثيرة . حدثته نفسه : منتهى اللياقة والليونة والجمال . . هكذا يجب أن تكون النساء .

تسرب الى رأسه دبيب خافت . . ينقر فى رفق ، يذكره بالعجز والخزانة . أحس التليفزيون بالنقر . . مد يده الخفية التى تقف فوق رأس الرجل تحرسه وتوجهه . . طرد كل الهواجس . لم يسمح التليفزيون بأى نقر على رأسه الذى يعتز به . أدار مفتاح التثبيت . المفتاح الذى به تثبت عينا الرجل على التليفزيون فلايرى غيره .

استرخت أعصابه فمد ساقيه على المنضدة الصغيرة .



ـ اهلا يايوسف ؟ . .

جاءت زوجته الممتلة من الداخل تدق الأرض . . لم ينتبه لها . وضعت يدها على كتفه . ادرك انها زوجته . وضع يده على يدها دون ان يرفع نظراته عن التليفزيون دلالة على انه يرد تحيتها .

مد التليفزيون يده الخفية المكونة من ذرات مشعة ، فوضعها على راس الزوجة . هبطت على الكرسى ، كانها تحمل اثقالا تنوء بها . ثبت على راسها لوحة ازراره . امرها ان تتعجب وتغار .

قالت : خفيفة كالريشة . . ألم يكن جسمي مثلها يايوسف ؟ .

لم يسمع يوسف شيئا ، ولم ينطق حرفا . فجاة اختفت الراقصة وظهرت صورة ثابتة للأهرامات بينما الموسيقى تعزف لحظات واذن المؤذن لصلاة العصر . تغيرت الصورة فاصبحت مسجدا ومئذنة سامقة ، يصعد عليها التليفزيون ويهبط ، ويجوس خلال ابهاء المسجد واعمدته الفخمة . . بينها بعض المصلين الخاشعين .

تذكر الرجل انه لم يصل الظهر ، لكنه راى ان يصلى الظهر والعصر معا .

بعد لحظات دق جرس الباب . رفع التليفزيون يده الوهمية عن راس الزوجة . . اتاح لها الفرصة كى تسمع ، وامرها ان تفتح الباب .

فتحت الباب ودخل ولدها الأكبر ، سلم على ابيه ، ساله ابوه :

ـ اين كنت حتى الآن ؟ . . الا تخرج من المدرسة فى الثانية ؟ . .

ـ نعم . . ولكنى كنت فى . .

وضع التليفزيون يده على راس الرجل . . جذبه اليه . لمس مفتاح التركيز . . بطرف عين اطل الرجل على الصورة فشاهد عناوين الفيلم الأجنبى ، وحركات الممثلين العنيفة . .

ـ طيب . . ادخل الآن . .

لم يعرف اين كان ولده . . وضع التليفزيون يده على راس الولد وحوله اليه .

لم يدخل كما امره ابوه وانما القى بحقيبة الكتب على الكرسى وجلس على آخر ، تكاد تثقب نظراته شاشة التليفزيون من شدة التحديق .

. توقفت سيارة نقل كبيرة مزدوجة المقصورة ، وهبط منها أربعة من الشباب ضخام الجثث مفتولو العضلات . انتشروا فى المكان . . مضوا

يحدقون فى وجه كل من يخرج من باب الحانة . ثم خرج شاب ، ما أن وقعت عيناه عليهم حتى بدا الاضطراب عليه وبداوا يقتربون منه . كل واحد يدنو من زاويته ، والشاب يمسح المكان بنظراته القلقة بحثا عن مهرب ، وقبل أن يبلغوه استنفر قوته واسرع بالقفز فى اتجاههم ليفلت من بينهم لكن اثنين منهم تشبثا به ووقعا فوقه وجاء الآخران واوقفوه ليضربوه » .

قدمت البنت الصغيرة من الداخل : جائعة ياماما .

لم تسمعها الأم . . هزتها البنت . تمكن الشاب من تخليص ذراعه اليمنى وضرب احدهم واختطف الذراع اليسرى وضرب آخر والثالث بقدمه اليمنى والرابع بقدمه اليسرى وقفز فى سيارتهم وطار . صرخت البنت . . ضغط التليفزيون على مفتاح الوعى عند الأم . سمعت صراخ الطفلة . .

ـ جائعة . .

ـ ساحضر الطعام حالا . . اجلسى .

عاد التليفزيون فاسترد الأم ، ونسيت الطعام « اندس الأربعة فى سيارة لاقتفاء أثر الهارب . عثرت نظرات الشاب على منزل كبير ببوابة خشبية ، اقتحمها ودخل المنزل . . انطلق اعداؤه إلى نهاية الشارع .

لطمت البنت خديها وصرخت ، جائعة . . جائعة .

انزعج التليفزيون من صراخها فهو لايحب الضجيج . . يتعكر مزاجه إذا لم يتوافر الهدوء التام وإذا لم تكتس الوجوه بعلامات الدهشة والانبهار . . اعاد الوعى الى الام فذهبت وجاءت بالطعام .

اخذوا جميعا ـ وعيونهم على الفيلم ـ يمدون الايدى ويقضمون ببطء كبقرة تجتر غذاءها فى الظل . جاء الأبن الأوسط : لماذا لم تناديني لأتناول طعامى ؟ . .

لم يعره احد التفاتا . بدا يتابع الفيلم ويتناول الطعام بيده دون أن ينظر اليه واصبح كحال الباقين . منهم من يضع ملعقته فى الملح بدلا من وضعها فى طبق الارز وآخر يضع لقمته فى الارز بدلا من وضعها فى طبق الملوخية .

انتهى الفيلم فامر الأب ولده . . كانه فى غرفة العمليات العسكرية بسرعة تغيير القناة . . ظهر المدرس وهو يشرح البرامج التعليمية .

تسلل الفتور الى الجميع حتى الكبير الذى يعيد الثانوية العامة والأوسط الذى انتقل بصعوبة الى الاعدادية . حولوا القناة ودخل الأوسط الى حجرته .

حاول الأب النهوض لخلع ملابسه فلم يستطع . . منذ بضعة شهور وهو يشكو من ركبتيه . رغم انه لم يتعد الخامسة والأربعين . حاول النهوض مرة اخرى ونجح ، مضى الى الحمام وعاد .

رفعت الأم الأطباق دون مساعدة الأولاد الذين أصروا على مشاهدة الاعلانات . . كل منهم تتجدد امنياته مع كل اعلان . . يتمنى أن يشرب هذا المشروب الذى تعود عليه العباقرة ويغسل اسنانه بمعجون الأبطال ، وتمنى أن يدهن وجهه بالكريم الذى لاتستخدمه الا ملكات الجمال وود لو ينام فى حجرة النوم الخرافية ويستحم فى الحمام البلورى . . وياليته يتعطر بهذه الرائحة التى تمكنه من اقتحام كل عسير .

★ ★ ★

جاءت النشرة فامر الأب بتحويل القناة ، لايريد أن يعرف شيئا عن أى شىء . عن أى دولة . . عن أى حادثة . . فوجىء الجميع بأن البرامج التعليمية مازالت تشرح فى حماس .

أذن المؤذن لصلاة العشاء . . شعر يوسف بآلام فى ركبتيه ، لم ينهض ، دق جرس الباب . . نهضت الأم وفتحت : أهلا . . أخى أحمد يايوسف .

قال : أهلا ياأحمد . . حول القناة الثانية .

ـ لا أهلا ولا سهلا . . انتم لاتسالون على احد ولو مت لما تحركتم . .

ردت فكرية : « لاتقل هذا . . أهذا معقول يايوسف ؟ . . »

بذهن شارد أجاب : غير معقول . . اجلس يا أحمد .

بذل التليفزيون جهدا غير عادى ليجذب الضيف . . التفت أحمد الى التليفزيون دقائق ، ثم راح يسخر من بضاعته . . من الديكور والممثلين . . من سطحية الأفكار ومنظر المذيع والأخطاء الكثيرة فى المعلومات ، حتى ضاق التليفزيون بهذا الشخص الذى سيعكر صفو الأسرة وسيخرجهم عن طاعته .

قرر فجاة ان يقطع برامجه لاسباب فنية ويقدم بدلا عنها استعراضا اجنبيا عامرا بالنساء والشباب والموسيقى والديكورات المبهرة والأضواء الصارخة ، فاهتم الجميع ما عدا احمد ، جاء الابن الأوسط فسلم على خاله ، وسال اباه عن حل لمسالة صعبة من مسائل الجبر . .

قال الأب :

ــ الوقت ليس مناسبا . . خالك موجود .

قال الابن ـ وهل خالى غريب ؟ .

صرخ الأب ـ عيب ياولد . .

انبرى الخال ـ أنا لست غريبا . .

قال الأب في تحد وعيناه على التليفزيون : ليس الآن . . يعنى ليس الآن . .

احس أحمد ان مشكلة توشك ان تنشا بسببه فقال :

ــ دقيقة يايوسف . . اسالنى يااشرف عما تريد . .

ادرك الأب ان المسالة ستطول . . ولن يتمكن من مشاهدة الاستعراض المبهر ، قال بحدة :

ولا انت تجيبه الآن . . وقت آخر . . هيا . .

دخل الصبى فالقى الكتاب من قبيل العناد ، وعاد فجلس معهم ، تعلل احمد ثم قال : الم تعلمى بوصول اختك من الخارج مريضة ؟ .

اجابت بتثاقل : اعرف .

سالها : ولماذا لم تذهبى اليها ؟ .

حارت في خجلها فقالت : مشاغل يااحمد . .

سالها بهدوء . . حاول ان يكبح به جماح دهشته : اى مشاغل ؟ .

قالت ليوسف وهى تهزه : احك له ..

لم يرد يوسف . . وبدا كانه ميت يجلس في الكرسى مفتوح العينين . . ميت من نوع غريب وجديد . . ميت عصرى .. انتهى الاستعراض فاجابهم . . ماذا جرى ؟ . . كيف ؟ . .

سال احمد : الم تعلم ان امينة وزوجها عادا من الخارج وهى مريضة جدا . . اشعل يوسف سيجارة فربما تخفى شيئا من ملامحه : نعم اعلم .

ـ ولماذا لم تذهبا اليها ؟ . .

الهمته سحب الدخان مهربا فقال : الحق انى مشغول هذه الأيام . . لدينا عمل كثير بالهيئة . . وهنا مشاكل الأولاد . . ودروسهم . . الحياة اصبحت صعبة .

ـ عندما علمت انكم لم تذهبوا اليها جئت انبهكم . .

تنفس يوسف بملء رئته . . الآن يستطيع ان يتابع البرامج ، ولكنه قال :

ـ سنذهب إن شاء الله . . حولوا القناة . . حل موعد التمثيلية . .

أسرعت الزوجة النشيطة فحولت القناة . . قال احمد إنها مملة . .

كاد التليفزيون ينفجر غيظا من هذا الذى لايعجبه شىء ، ولايود أن يعيره اهتمامه ولو لدقائق ، وهو كفيل ان يعد له لوحة الازرار ويثبتها فى راسه .

مضت التمثيلية تدق فى رءوسهم . . وهم يضحكون على اى شىء . . وتناولوا العشاءفى نفس المكان . . وانصرف احمد وهم ملتصقون بالكراسى . . والطفلة نامت فى مكانها .

انتهى الارسال فى جميع القنوات . . ولم تعد هناك صورة ، وإنما مجرد جهاز كهربائى . تشع منه ذبذبات ضوئية تصدر صوتا مزعجا . . تش . . تش . .

لم تسمح نفوسهم أن يقفلوه . . تمثل لهم خاطر قوى من الممكن ان تطل عليهم من بين هذه الذبذبات صورة ممثل او حتى جزء من مباراة او زجل بعشرة مليون دولار . . غير مستبعد ان يكون هناك فيلم مرفوض او سهرة تليفزيونية مهجورة تغضب لحالها فتكتم آلامها فى نفسها الى أن تحين الفرصة ، فتنهض من قبرها او تخرج من علبها . . وتقفز الى جهاز الارسال وتفاجىء المشاهدين المخلصين .

بعد طول صبر ومقاومة اطفاوا التليفزيون . . كادوا يخشون إذا هم اطفاوه ان يموت ولا يعود اليهم فى اليوم التالى ، فينتحر بعضهم ويضرب الباقى عن الطعام .

اخيرا اطفاوه فعم السكون وكانهم كانوا أخرناس فى الدنيا ايقاظ . .

بتثاقل نهضوا للنوم . . لحظات وغدا كل منهم جزءا من السرير . . جثة هامدة لايشير إلى ارتباطها بالدنيا الا الغطيط العالى من الجسد المنهك .

اطمان الى انهم جميعا قد ناموا . . فهب من مكمنه المهيب . . أخرج قوائمه من تحت صندوقه وبسطها . قام عليها ، وبدات تمتد بشكل خرافى . . كبر راسه وتضخمت جوانبه ، وتفرعت فى الردهة والممرات والحجرات ، ملا المكان كله حتى لم يعد فى الشقة غيره .

تحسس الرءوس . . ضغط على أزرار الاحلام . شرع يتحدث اليهم فى همس عال كالفحيح :

ـ احلموا . . احلموا بى . . انا إلهكم الأعلى فاعبدونى . امنحكم الجمال والمتعة اضع العالم كله بين أيديكم . .

بدات شفاههم المغلقة تفسح الطريق للكلمات والأمانى والأحلام . اطمان التليفزيون انهم ينفذون وصيته ، اكتست أطرافه ببريق البهجة والنشوة ، ثم بدا يخور كالثور ويهبط . . يتضاءل حجمه كالبالونة المثقوبة ، الى ان طلع النهار ، فاصبح على هيئته العادية الوديعة التى يراه الناس عليها . .

استيقظ يوسف فى نحو العاشرة ، اسرع فزعا يدس جسده فى الملابس . . اى ملابس . . ترك القوم كلهم غرقى فى عالمهم . يتعالى غطيطهم من الحجرات مختلف النغمات كانهم يعزفون تبعا لنوتة موسيقية .

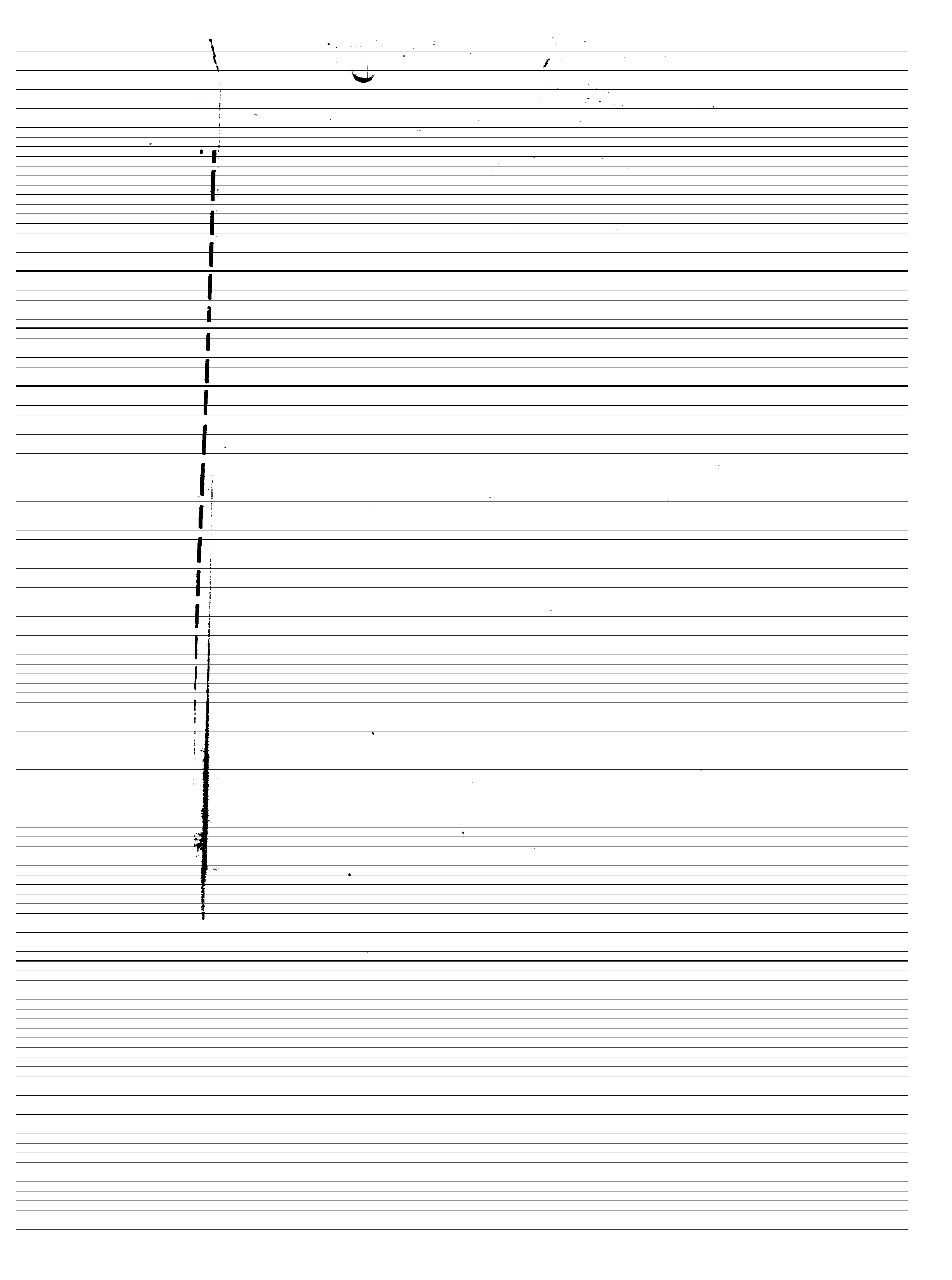
هرب من رائحة النوم المتعفنة .

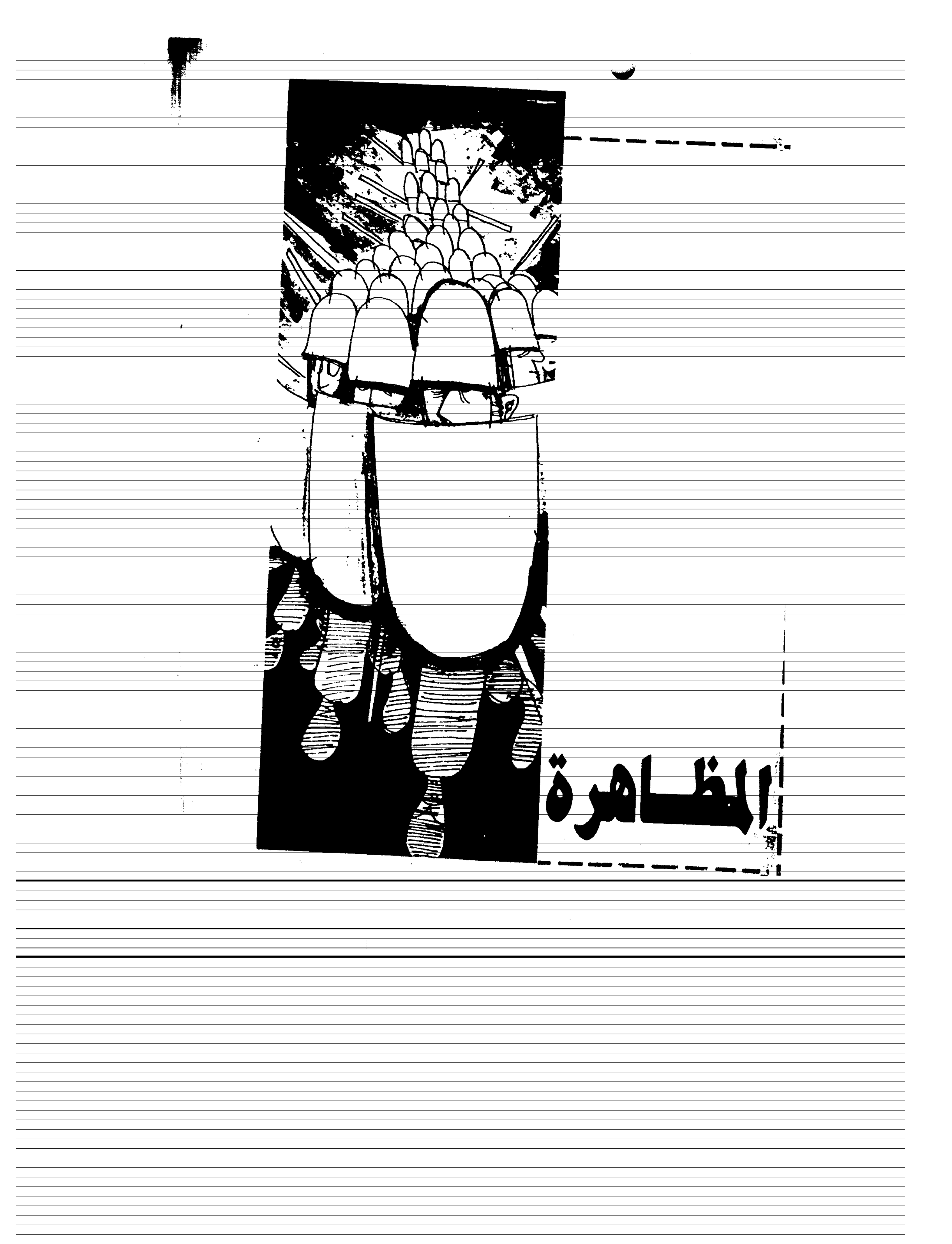
كادت لجنة الجرد فى مكتبه تنفث الغضب وتتمسك بالصبر . . ثم استعدت للرحيل لتكتب تقريرها عن حالة الخزانة .

لما راوه سالوه : ماذا فعلت بالعجز ؟ . .

ذاهلا متلفتا . . قال : عجز ؟ . . أى عجز ! ! . .

● ● ●




المظاهرة

. **كان** الصمت يستولى على الحجرة تماما .
والضابط يتصفح باهتمام مجلة مملوءة
بالصور ، وقدماه على المكتب . . فجأة
صرخ التليفون . . رفع الضابط
السماعة ، قال بهدوء العظماء : نعم
انتفض حتى كاد ينقلب ووقف معتدلا : أهلا يا أفندم
عملت يده بنشاط فى ترتيب هندامه وشد حزامه ، وكل
حواسه تنتبه لما يسمعه ، وبين الحين والحين ينطلق بكلمة
او كلمات : مستحيل . . هنا فى قصر النيل . . لكن يافندم
القرار صريح بمنع الـ . . أوامر سعادتك . . القوة الموجودة
عندى بالقسم لا تكفى . . آه لو سمحت . . نعم . .
حاضر . . لاتتهم سيادتك . . سألحق بها فورا . . مع
السلامة .
انتظر الى ان أغلق محدثه السماعة ، فوضع السماعة
وشرد . . ضرب جرسا ، ولم ينتظر الاجابة . زعق - يارقيب
عبد العاطى
جاء على الفور الرقيب عبد العاطى ودك الارض بحذائه
وانتصب محييا مأمور القسم : تمام يافندم
اجمع لى كل القوة واستدع حضرات الضباط ، ونبه على
المركبات تستعد ، ابلغ الكل بالحضور حتى من قام باجازة .
دق عبد المعاطى الارض بحذائه مرة أخرى وحيا الضابط
فى الحال يا أفندم .

دار على عقبيه ومضى فى حماس .
تقدم الضابط من الخريطة المعلقة على الجدار فى مواجهة مكتبه . سقطت نظراته مباشرة فوق الجسر . بدأه من أوله . سعد زغلول يقف شاهرا يده كالسيف

أشار بعصاته إلى المواقع التى ستمر بها المظاهرة . . أين تراه أضيق ممر يتعين عليه أن يحتله ليسد عليها الطريق .
فتح الباب واندفع الضباط

— ماذا حدث ؟

— مظاهرة

فى صوت واحد رددوا وراءه

— مظاهرة ! كنا قد ارتحنا من هذه الامور

— ربما لا يكونون طلبة

— طلبة أو غير طلبة ، المهم أن هناك مظاهرة ، أى عمل ضد القانون

— وأين هى الآن ؟

— فوق جسر قصر النيل ومتجهة الى ميدان التحرير

— وبعد الميدان

— لا نعرف

— وما هويتها . . ما هدفها ؟

— لا أحد يعرف . . البلاغ لم يفدنا بغير ذلك

— إما ان تتجه يمينا الى قصر العينى فمجلس الشعب

— أو تتجه الى الامام حيث باب اللوق فقصر عابدين

— أو تتجه يسارا الى شارع رمسيس حتى قصر القبه

ـ على اى حال علينا الآن أن نذهب فورا الى ميدان التحرير ونتصرف حسب الظروف .

ـ احذركم من العنف

ـ هم الذين يبدأون

ـ لا داعي للرد عليهم حتى لا نتورط أكثر . . تكفى الدروع والعصى

ـ وماذا تفيد ؟

ـ انتظروا الأوامر

ـ رأيى انه لابد من المسيلة للدموع

ـ موافق على سبيل الاحتياط

ـ اتصل سيادتك بالمطافىء لتلحق بنا

ـ من المؤكد أن سيادة اللواء اتصل بهم . . فضلا عن أنه ليس من سلطتنا اصدار الاوامر اليهم فى مثل هذه الشئون

ـ اذن لا بد من مساندة قوات الأمن المركزى ، فنحن وحدنا سنسحق

ـ وعد سيادة اللواء بارسالهم فورا . . لكنها منطقتكم ومسئولة منكم . . فهم الآن يمرون بأرضكم

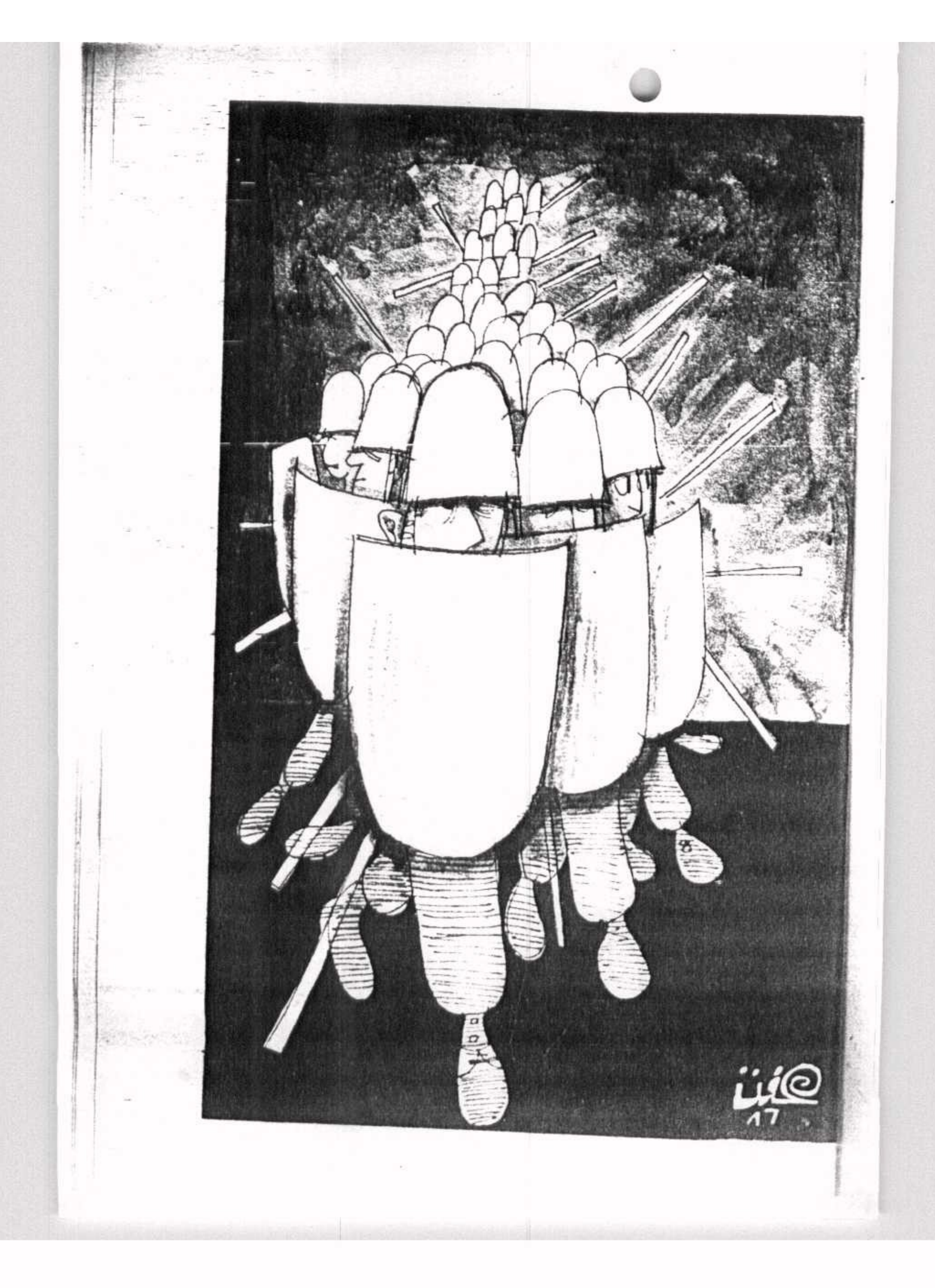
ـ تمام ياافندم

ـ بعد دقيقتين على الاكثر نأخذ تمام أمام القسم

انطلقوا جميعا ، جنود ومباحث وضباط وسيارات لورى وجيب .

فى ميدان التحرير هبطوا . .

فى آلية تامة انتظموا صفوفا ، تحمل الدروع والعصى ،


٨٦

وفوق رؤوسهم تصطك الخوذات النحاسية وترن . . على الاسفلت تدق الاحذية الثقيلة ، وفى الفضاء تدوى الحناجر معلنة قوتها ، ومبدية شراستها ، وقدرتها على الردع : ها . . ها . . ها . .

★ ★ ★

اندفع أحد الضباط ومعه جهاز الاتصال وصعد فوق جسر المشاة الذى يلتف حول الميدان كدائرة إلنار . . راقب الجسر فى اهتمام وتحفز ، راعته اعداد ضخمة من الجماهير ، تهدر بأصوات لايتبينها تعبر الجسر وتتقدم كالغول . . كحيوان اسطورى ظهر مرة أخرى فى نهاية الزمان .

تحدث فى الجهاز الى رئيس القوة

— تمام يافندم . . . . المظاهرة ضخمة جدا ، لاأرى لها نهاية . . عدد كبير محمول على الاكتاف . . أرى جنود الامن المركزى وهم يصطفون هنا أمامى فى أول الميدان . . يبدو أن الاوامر لم تصدر بعدِ لايقاف المظاهرة والقبض على زعمائها . . المسافة بين المتظاهرين وجنود الأمن لاتزيد على خمسين متر وصمت الضابط ليستقبل رد المقدم رئيس القوة :

— ابق فى مكانك . . سننضم إلى قوة الأمن المركزى . . سنوقف المظاهرة باذن الله .

أعتقد ان الشيوعيين وراء هذه المظاهرة

— كيف عرفت ؟

— يحملون اعلاما حمراء

— لابد انهم كذلك . . ومع ذلك لن نبدأ العمل الا بعد معرفة هويتهم .

اشار المقدم الى ضابط وثلاثة جنود يرتدون الملابس المدنية :

— توجهوا فورا الى المظاهرة واندسوا وسط الجماهير . . حددوا نوع الهتافات واكثرها ترددا ، وانضموا الينا بسرعة عند أول الميدان

واستدار الى الضباط رؤساء القوة :

— كل القوة بالخطوة السريعة تتجه الى أول الميدان

انتظر الجنود حتى تصدر لهم أوامر رؤسائهم المباشرين . . الضباط الصغار . . ثم بدأوا القفز فى أماكنهم . . أقدامهم تعلو وتنخفض ، الى ان صدر لهم الامر الثانى بالاتجاه الى الميدان . . فتقافزوا اليه ، يطلقون صيحات الرعب والتهديد : ها . . ها . . ها . .

بلغوا المكان ووقفوا صفا واحدا متشابكى الايدى ، ليكونوا سورا حصينا من الاجساد والدروع والخوذات والنظرات الشذراء والعداء والتحفز .

بدت الاعلام الحمراء ، ودنت الهتافات الصاخبة المتشنجة . . تضاءلت المسافة التى تفرق بينهم . . لم تعد تتجاوز عشرين مترا . . لابد من بدء العمل . . لم يرجع ضابط المباحث ورجاله .

تقترب الجموع الضخمة . . الصيحات تدوى فى الميدان كله . . بدت المظاهرة خرافية فى حجمها . . زحف طويل عريض كثيف . . عنيف متحمس . . الزعماء المحمولون ملتهبون ، بعضهم مفتوح الصدر تماما والعرق يسيل . . حشد هائل من البشر ، لم تعرف بعد مطالبهم .

وقف احد الضباط يقول لزميله :

كيف يجرؤ هؤلاء الشباب على ركوب هذه المظاهرة والخروج فيها ، القانون الذى صدر بمنع المظاهرات بشتى صورها مازال يعمل بكفاءة عالية ومازال قادرا على السحق والمحق .

شيء غريب حقا وحماس اسطورى سيؤدى بأصحابه الى التهلكة . ونحن نعرف ماذا يجرى فى الخفاء لمثل هؤلاء . . انه لجهل حقيقى وطيش اكيد . . صحيح ان هناك كثيرا من العيوب والمآخذ والمخازى . لكن العقاب أشد والروح أحق أن تصان والعمر أثمن من أن يهدر فى موقف كهذا . الدم الغالى سيراق بكل بساطة وبدبشك البندقية ستتحطم الرؤوس بكل استهانة .

زعق المأمور فى الجميع

— استعدوا . . تشابكوا جيدا ، سأقف على جانب الشارع ، سأشير اليكم بمجابهتم ، انظروا الى يدى لأنكم لن تسمعونى . . لاتدعوهم يمروا . . هذا افضل موقع لاحتجازهم . .

أسرع الضباط الى الطوار . . ووصلت الجموع الحاشدة . . استمع الضباط الى هتافها المجنون :

— الأهلى حديد . . الأهلى حديد

كادت الدهشة تصعقه ، حاول أن يستمع لهتاف آخر

— وبطلكم مين ؟ الأهلى ، وفريقكم مين ؟ الأهلى

كاد الذهول يقضى عليه . . افاق من غيبوبة المفاجأة ، انتشى فرحا لأن كل هذه الجموع تشجع فريق الاهلى لأنه هو الآخر يشجع الأهلى . . رفع يده وهتف معهم : الأهلى

حديد . . الأهلى حديد . .

رأوه الجنود وهو يشير بيده ، انقضوا على الجموع الزاحفة يردونها فى عنف . . لاح له ضابط المباحث ورجاله وسط الصفوف يهتفون للاهلى الحديد .

تذكر الضابط المهمة التى جاء من أجلها . . تذكر الجنود . . ألفاهم فى معركة . . ناداهم فلم يسمعوا ، أخذ يصفر دون جدوى ، وخشى ان اطلق رصاصات فى الفضاء لينبههم فربما يطلق البعض الرصاص . . أسرع اليهم يبعدهم وقد تسمروا فى الارض كانهم كباش تنطح .

لم تلبث الجماهير الزاحفة أن دفعت الجميع فى تيارها الفيضانى الهادر ، ومضى الموكب مهللا ، يحمل الاعلام الحمراء ويهتف ، ويطل سكان العمارات يشتركون من الشرفات فى المظاهرة الصاخبة ، التى تشيد بفريق كرة القدم الفائز !

● ● ●



العجل

في الليـل الساكن تمـاما كـأنـه ينصت
لهمس ما . . تنبه نجدى من نومه على
أنين ، ولما تنبه وأفاق ، أدرك أنها البقرة .
قفز من فوق الفرن إلى الزريبة .
البقرة سوداء والمكان معتم ، وضع
يده عليها كأنه يقول لها :
- إطمئنى أنا بجوارك .
إقشعر جسدها بهذا الاطمئنـان ،
أدركت أنه معها . . سيتصرف ولن تحتاج
لمزيد من الأنين .

عاد الى القاعة التى ينام فيها الأولاد . . خلع اللمبة الجاز من مسمارها ، وكانت ماتزال تهمس بضوء خافت ، بسبابته وإبهامه أدار مفتاح الشريط . . دوى الضوء فى المكان . . اجتاز عتبة الباب ، احست به زوجته . . لحقت به ، دار حول البقرة ، تحسس نجدى بطنها المنتفخة . .

كانت تنام على جنبها الأيسر وترفع رجلها الخلفية اليمنى الى أعلى . .

منذ يومين أعنت كل الأعراض البادية عليها انها على وشك الوضع ، تنتظر وتنتظر العائلة معها حادثا سعيدا . .

أكد له أبوه أنها ستلد فى الفجر على الأكثر . . لم يؤذن الفجر بعد ، وعليه ألا يعود الى فراشه الآن . .

شجه فجأة صراخ زوجته . .

- لقد أطلت رأس العجل . .

إقترب نجدى باللمبة ، حملتها عنه زوجته . . حدق فى مؤخرة البقرة السوداء . . تطلعت اليه عيون العجل الصغير ، كأنه يقول له :

- إخرجنى من هنا . .

- الله يا نجدى . . العجل جميل ووجهه وجه بشر وخير . .

كأنه لم يسمعها ، أسرع نجدى بخلع جلبابه . . لقد بدأ العمل . . دس يده تحت رقبة العجل يبحث عن ساقيه الأماميتين . . المهمة عادة تكون أيسر لو مع الرأس خرج الساقان . .

لم يستطع نجدى أن يمد يده بعيدا داخل الرحم . . نصف الساعد فقط هو الذى اختفى داخلها ، ولم تقابله ساق واحدة . .

حاول نجدى بيده اليمنى حينا وبين يده اليسرى حينا ، دار حولها توترت أعصابه وسال العرق بغزارة ، تفجر العرق من كل مسام جسده ، من فرط القلق والجهد والتحفز . .

قالت زوجته :

ـ هل انادى سليمان . . لاشك انه أمهر . .

وكأنه وجد الحل . .

ـ أسرعى . .

لم تجد مكانا تضع عليه اللمبة أو مسمار تعلقها فيه ، فوضعتها على الأرض وأسرعت تنادى جارهم وعادت . .

لم تمر دقائق حتى كان سليمان قد حضر ، ودون أن يلقى التحية تقدم مباشرة بذراعه (المشمر) فدسه فى البقرة بحثا عن الساقين . . كان سليمان كنجدى ضخم الجثة ، عريض المنكبين ، مفتول الذراعين ، ادخل أولا ساعده الأيمن وأدار كفه فى رحم البقرة الصابرة ثم أخرجه وأدار وجهه ودس الأيسر يفتش . . إلى أن قال :

ـ ها هما . . إنهما مبسوطتان تحت بطنه . . العرق يتصبب من جبهته الى انفه كالصنبور ، واصل جذبهما فلم يستطع ، حاول وحاول بلا نتيجة . . قال نجدى :

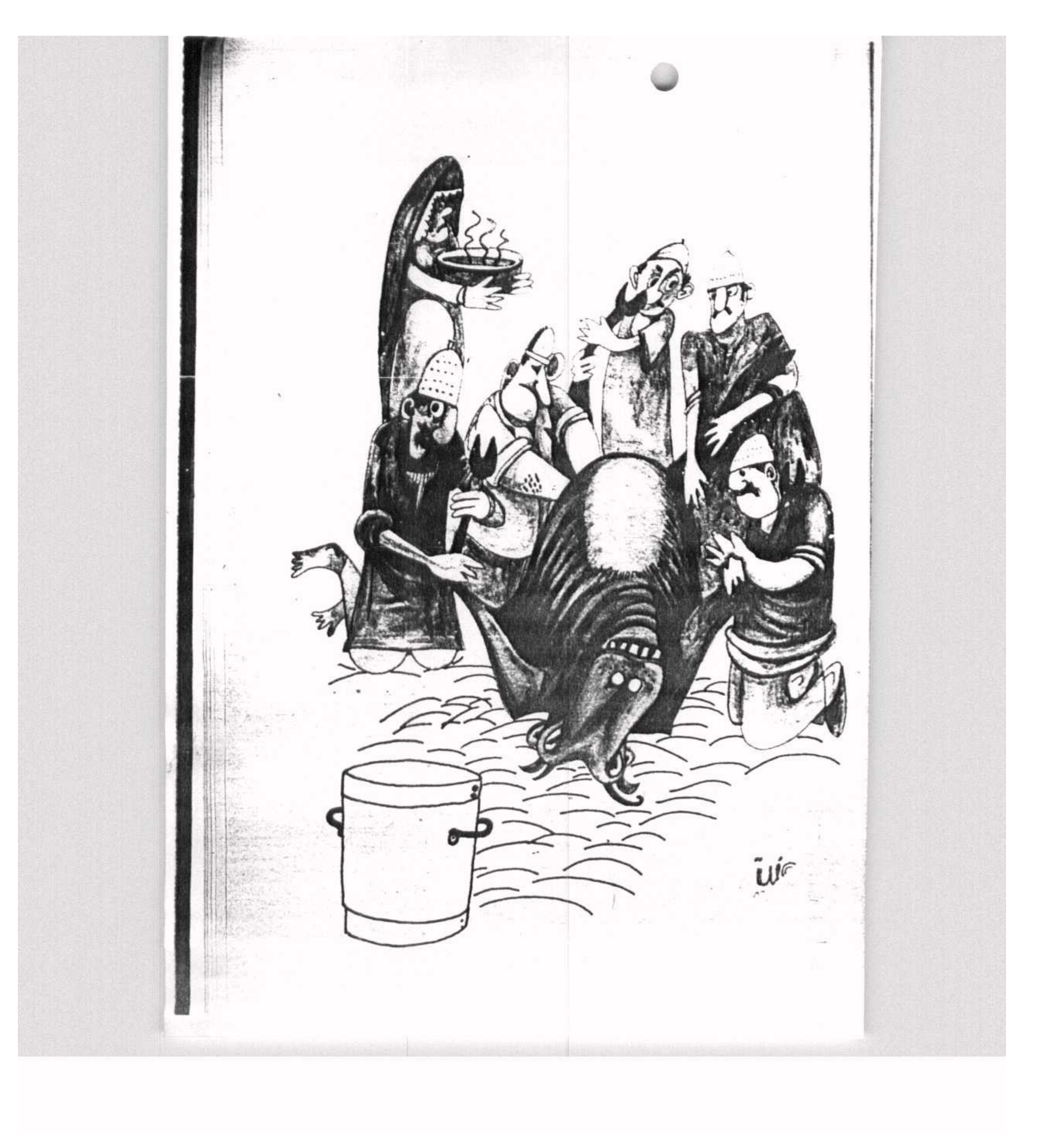
ـ أليس من الأفضل أن أستدعى الطبيب . .

إنفجر فيه صوت . .

ـ اى طبيب يا مجنون . . حتى توليد البقرة لا تقدر عليه . .

إلتوت عنقه الى الوراء مع الصوت القادم عبر الظلام . . كان والده الحاج عبده يهبط الدرجات مشمرا عن ساعديه . .

تساءل نجدى . . لماذا يشمر هذا الرجل عن ساعديه



وقد تجاوز السبعين ، المهمة تحتاج الى جهد كبير ، أصبحت المسألة معقدة وتحتاج بالفعل الى طبيب . ما العمل ؟ البقرة عنده أغلى من روحه ، والعجل الصغير هم فى حاجة اليه أيضا بل فى أمس الحاجة اليه . .

تساءل نجدى . . وهل سنترك الوقت يمضى وكل واحد يتقدم اليها فيعبث فى بطنها ، لا لقد حاولت أن أقوم بالمسألة وحدى فى صمت . لكنها ليست بيسيرة كما تمنيت . . هم أن ينطق بكلمة ، لكنه أحجم ، فلم يتعود أن يرد على أبيه . . ما يقوله الأب هو أمر ربانى ، يجب أن ينفذ بلا أدنى كلمة . .

أطل الأب على العجل ، ثم سأل فى غضب كأنه يسب أبنه :

- لم لم توقظنى ؟ !

- ألم تكن متعبا ليلة الأمس وتشكو من مفاصلك . .

- هذا تعب الكسل وقلة العمل . .

حاول الأب مع العجل ، لكنه بدا عاجزا تماما عن تحقيق أى تقدم . .

مضى العجل يهز رأسه ولعله يهز فى الداخل جسده ، محاولا أن يشارك بأى جهد لتخليص روحه من روح أمه الصابرة ، أو جسده من جسدها . .

فى هدوء سحب سليمان الحمارة وأسرع الى الطبيب . . وضع فمه على نافذة حجرة الطبيب التى يعرفها ، وهمس بأعلى ما يكون الهمس :

- يا دكتور . . يا دكتور عزت .

هب الطبيب على الفور . فتح الشيش . ربع فتحة . .

ـ من ؟ ! .

ـ أنا سليمان أبو عمر . بقرة نجدى . .

قاطعه الطبيب . .

ـ طيب إنتظرنى ثوان . .

سألته زوجته . .

ـ من ؟ ! .

ـ ولادة متعثرة .

ـ فى هذا الوقت . .

ابتسم مندهشا لسؤالها . . كان الطبيب وديعا جدا ومتفائلا جدا . .

ألح عليه سليمان كى يركب الحمار . لكنه رفض بشدة ، ومضى يسرع فى السير الى بيت نجدى واضطر سليمان أن يسير الى جانبه وكذلك الحمار الذى كان فى دهشة من أمرهما . .

أذن الفجر فترك الأب البقرة فورا وسعى كعادته الى المسجد فلم يكن ليثنيه عن صلاته إطلاق الرصاص أو وصول عزيز غائب . .

شمر الطبيب ذراعه وكان طويلا نحيلا . .

تسلل ذراعه داخل الرحم ، وغاص الى ما بعد المرفق ، وعثر بالساق . . قال : ـ وجدتها . . لكنها مكسورة .

سحبها فأنت البقرة أنينا ممطوط ، وكأنها تقول :

ـ خلصونى . . لقد تعبت . .

اقتربت رأس الطبيب من رأس العجل . . وضع أذنه عليها . . لم يسمع همس أنفاسه ولا حتى حشرجة . . مد يده فرفع جفنه وقلب عينيه . . حدقت فيه العين بثبات ، قال :

ـ لا تيأسوا . .

قالت الزوجة بحزن بين وكانت ترقبه باهتمام . .

ـ مـات . .

ـ المهم الأم . .

سقط الصمت . . بدا على الكل سهوم . . دس الطبيب ذراعه اليسرى وأخرج الساق اليسرى . .

توالى أنين الأم وقد زاد من مصابها إدراكها فقد وليدها . .

تقاطر الجيران ، كلهم يعرفون أن بقرة نجدى على وشك الوضع . . كم هو محزن أن تئن الأم . . قال الجميع :

ـ الراس الآن ظاهر والساقان الأماميان . . هذا هو الوضع المناسب إجذبوه فورا . .

مد الطبيب يديه وجذب الساقين بكل قوته فلم يفلح . .

تقدم سليمان وأمسك بساق ونجـدى بساق . . جذبا بكل ما لديهما من قوة ، لكن العجل المولود المفقود لم يتحرك . .

عفر رجلان أيديهما بالتراب حتى لا يفلت الساقان من أيديهما . . أخذا مكانى سليمان ونجدى اللذين تراجعا دون كلمة . .

اطبق كل منهما يديه الاثنين على ساق العجل وجذبا بكل ما لديهما من جهد وصلابة فلم يتحرك العجل . .

اخرج الطبيب من حقيبته علبة صغيرة . فضها وغرف باصبعه مرهما مسح منه حول عنق الرحم داخله وخارجه . واستانفوا الجذب من جديد . سقط البعض بعيدا على الأرض حين (تظفلطت) أيديهم . . وانت البقرة . . واشفق الجميع عليها . .

جاء الأب من الصلاة أمرهم بربط الساقين بالحبال ليشترك الكل في الجذب مرة واحدة ، لأن بقاء العجل على هذا النحو مدة طويلة كفيل بالقضاء على الأم . .

احضر نجدى حبلين وربط كل منهما بساق . لف الرجال الحبال حول أذرعهم (وهيلا هوب هيلا) . . توالى الجذب . أكثر من سبعة رجال . . أعتى الرجال يجذبون - من جباههم يسيل العرق ، ومن بطن البقرة يسيل الدم والسائل الأصفر الذى كان يسبح فيه العجل المفقود . .

و(هيلا هوب هيلا) . .

والزوجة . .

- يارب والنبى يا رب . .

رويدا رويدا . . خرج العجل وانت الأم . . بصعوبة سحبت نفسا ممتدا وتلته بانفاس قصيرة لاهثة ، كانها تستريح بعد عدو ساعات طويلة وسقط الى جوارها الجميع . . لكن عيونهم عليها وشفاههم ممطوطة أسفا على العجل الصغير . .